كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بدمياط الجديدة
المجلة العلمية
العدد العاشر ٢٠٢٢م

صوت المهمشين ورؤيا العالم

في رواية "دفاتر الوراق" لجلال برجس

الدكتور

عبد الله محمد كامل عبد الغني

مدرس الأدب العربي الحديث

كلية الآداب - جامعة دمياط

الملخص باللغة العربية

عبد الله محمد كامل عبد الغني

قسم: اللغة العربية وآدابها، **كلية:** الآداب، **جامعة:** دمياط، **مدينة:** دمياط، **دولة:** جمهورية مصر العربية.

البريد الإلكتروني: abdoallh١٩٨٢@du.edu.eg

ملخص البحث:

يدرس هذا البحث رؤية العالم وفق نظرة الشخصيات المهمشة وتصورها في المجتمعات العربية، من خلال استبصار رؤية العالم بشكل مكتمل الجوانب في أكثر من وجهة نظر في رواية "دفاتر الوراق"، فراعت الدراسة مبدأ تعدد الأصوات السردية وذلك من خلال استقراء المؤثرات الاجتماعية والسياسية والثقافية لكل شخصية، وربط كل ذلك برؤية العالم الناتجة عن التصور الذهني لهذه الشخصيات في النص الأدبي.

كما سعى البحث إلى بلورة رؤية العالم عند الطبقات المهمشة من خلال تناوله لقضايا جزئية تُشكل في مجموعها رؤية مكتملة، فتناول البحث أولًا: رؤية العالم عند بطل الرواية الرئيس، مُتتبعًا تقنية التعدد الصوتي في معالجة الروائي لشخصية هذا البطل، حيث نجد صوتين سرديين يصدران ويعبران عن هذه الشخصية، صوت يمثل الشخصية الظاهرة الواعية، وآخر يعبر عن الرغبات الداخلية، والأمور المحصورة في اللاوعي، صوت باطني في مقابل الصوت الظاهري. ثم تتبع البحث ثانيًا: بالتفصيل رؤى باقي الشخصيات في الرواية للعالم من خلال تتبع بعض القضايا المجتمعية التي تسبب أزمة ومشكلة كبرى في نسيج أي مجتمع، فتعرض البحث لمشكلة الفقر المدقع

الذي تعيشه بعض فئات المجتمع وأثر ذلك في تكوين رؤيتهم للعالم، ثم عرض البحث لمشكلة اللقطاء، وإبراز رؤية هؤلاء الشباب الذي لا يعترف بهم المجتمع للعالم وسلوكهم بناء على هذه الرؤية، ثم تناول البحث على ذات المنوال مشكلتي المرأة والتحديات المجتمعية التي تقابلها، ثم مشكلة السجن السياسي، التي كانت حاضرة في الرواية.

واتكأت الدراسة في استخلاص رؤى العالم المختلفة على إجراءات متعددة منها: الفهم والتفسير، التتبع للوعي القائم والوعي الممكن، وتوثيق هذا من خلال البنى الدلالية المختلفة، لتخلص الدراسة إلى تشكُل مفهوم خاص لرؤية العالم عند الشخصيات المهمشة. وأكدت هذه الرؤية على أن العالم منسوجٌ من ظلم وقهر واستبداد، وأن المجتمع قد تخلى عن واجباته تجاههم، وتؤكد رؤية المهمشين على حتمية سقوط هذا العالم الظالم بعدما تهددت مقومات الهوية والانتماء، وتقوضت قيم العدالة والمساواة بين أفراده. وشكل وعي هذه الشخصيات نموذجًا ذهنيًا واضحًا للعالم تربطه وشائج قوية بالعالم المعاش في المجتمعات العربية.

الكلمات المفتاحية: رؤية العالم – التهميش - تعدد الأصوات - دفاتر الوراق - جلال برجس.

الملخص باللغة الإنـجليزية

Voices of the Marginalized and World Views in Jalal Barjas's novel "Notebooks of the Bookseller"

Abdoallh Mohmmed Kamel Abd el –gany
Department of Arabic, **College** Arts, Damietta **University**, Damietta **City**, Eygpt **Country**.
E-mail: abdoallh١٩٨٢@du.edu.eg

Abstract:

This research inspects world views according to marginalized characters and their perception in Arab communities through the insight of multiple worldviews in Jalal Barjas' "Notebooks of the Bookseller". The research considers the principle of narrative polyphony through the examination of social, political and cultural influences of every character, and linking all to the world view produced by the intellectual perceptions of these characters.

The research also aims to form a world view of the marginalized classes by addressing partial issues which together form a complete view. The research paper primarily deals with the protagonist's view of the world. It follows the technique of multi-polyphony used by the narrator in dealing with the character of the protagonist. Actually, there are two narrative voices that express this character: one that represents the conscious side of the character and another that shows the internal desires which are deep in the unconscious. Second, the paper moves to investigating in detail the view held by other characters about the word especially the society issues that might result in some problems among people living in this society.

The research depends in drawing these different world views on multiple procedures including: understanding, interpretation, tracking real and possible consciousness and documenting all of which through various semantic structures. Thus, the study reaches a unique conception of the world view of the marginalized characters. This world view emphasizes that the world is full of injustice, oppression and tyranny, and that the society has given up its responsibility towards them. It also emphasizes the inevitability of the fall of this unjust world after the principles of identity and loyalty have been threatened, and the values of justice and equality among its individuals have been undermined. The consciousness of these characters has formed a solid mental model of the world strongly tied to that of the Arab communities.

Keywords: Worldview – Marginalization – Polyphony - Notebooks of the Bookseller - Jalal Barjas.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

تعبر السرديات والمرويات عن تاريخ الأمم والشعوب، ويقوم المبدعون من خلال سردياتهم وحكاياتهم بتنظيم الذاكرة الجماعية وتوثيقها، والحفاظ عليها وعكس ما يحدث في المجتمع وما يدور فيه من تفاعلات. فيعيد المبدعون تجسيد رؤاهم؛ وكذلك "إعادة اكتشاف الواقع من جديد بقضاياه الاجتماعية المتواجدة في نسيج الحياة وجوانبه المختلفة، ولعل هذا الطرح من القضايا داخل الشأن الروائي العام هو عودة إلى توثيق المجتمع من خلال الفن الروائي بنصوصه وتقنياته الجديدة"(١).

ولقد أصبح المثقف في هذا العصر مشحونًا بطاقة فعالة راغبة في التغيير والدفاع عن المعذبين، وإبراز صوت المهمشين لأنه "وحده من يستطيع أن يتحرر من الانتماء الطبقي، وأن يتعالى على المصالح الخاصة بهذه الطبقة أو تلك"(٢)، إنه -أي المبدع – يعيش حالة الوعي في عالم الخيال كما هو في عالم الواقع فيستشرف ما سيحدث من خلال ما يجري، ويصبح مشبعًا برؤية ثقافية تؤهله أن يُخرج رؤية للعالم على مستوى الوعي، فيها تعدد الممكن وتجريد للأفكار. وتتبلور عندئذٍ من خلال إبداعه "رؤية للعالم تقدم نموذجًا

(١) شوقي بدر يوسف: الرواية الاجتماعية واستلاب الواقع، إبداع، ٢٢ع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة – ربيع ٢٠١٢، ص١٣٩.

(٢) حميد لحمداني: النقد الروائي والأيدولوجيا، ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب١٩٩٠، ص١٥.

يتوسط ما بين الأساس الاجتماعي الطبقي الذي تصدر عنه والأنساق الأدبية والفكرية التي تحكمها هذه الرؤية"[١].

إن ما يُقدمه المبدع من رؤية شاملة للعالم يفتح كذلك مجالات من المتعة واللذة لدى المتلقي، لأنها تُشبع النزعة البشرية الراغبة في الوصول إلى فهم شامل وإدراك كلي للعالم، مما يتيح للعقل البشري تكوين صورة متكاملة للواقع ويضفي عليه قيمة ومعنى. وتؤدي تلك الرؤية المتكاملة للعالم إلى تحقيق معنى لوجودنا كما قرر فرويد أن "العالم بناء ذكي يحل مشكلات وجودنا"[٢].

وتكمن أهمية التدقيق في رؤى العالم عبر شخصيات المهمشين اجتماعيًا في أن كل شخص "يحافظ على رؤية العالم الخاصة به حتى يصل إلى احتياجاته من خلال منطقة عقلانية وفلسفية خاصة ببيئته، فقد مرّ الناس بهذه الاحتياجات إما عن طريق الإدراك الواعي وإما عن اللاوعي"[٣]، ومن ثم تتضح أمامنا مستويات هذه الشخصيات وطرق تفكيرها وأنماط سلوكها، بناءً على رؤيتها للعالم الناتجة عن تفاعلها مع بيئتها الاجتماعية والثقافية

---

(١) أحمد سالم ولد أباه: البنيوية التكوينية والنقد العربي الحديث (دراسة لفاعلية التهجين)، المكتبة المصرية، الإسكندرية ٢٠٠٥، ص٤٦.

(٢) سيجموند فرويد: مستقبل الوهم، ت (جورج طرابيشي)، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٤، ص٣٧.

(٣) ناصر بن صالح الجحيلان: رؤية العالم عبر محيط الشخصية في القصة – دراسة شخصية نجية في قصة الغراب، مجلة جامعة الملك سعود – كلية الآداب، مج ٢٣ – ١ع، يناير ٢٠٠١، ص٥٠.

والسياسية؛ إذ تتسق هذه المكونات في بناء واحد يفرز مثل هذه الشخصيات المهمشة، ويظهر كل ذلك من خلال بناء سردي تُطرح فيه مضامين اجتماعية محددة.

ويركز هذا البحث على تتبع رؤى العالم الخاصة بشخصيات المجتمع المهمشة، مثل: اللقطاء، الفقراء، المرأة... إلخ، في محاولة للتعرف على سمات هذه الرؤى وعلاقتها بالواقع، وتتيح هذه الرؤى المختلفة لشخصيات المهمشين مجالاً أرحب من النقد والتحليل، ووضعها تحت النظر من خلال العودة إلى مكوناتها الأصلية ونقض بنائها أو إثباته. وتمثل رؤية المهمشين للعالم حينئذٍ نفيراً مدويًا يدلل على "وجود شريحة اجتماعية تمثل القاع، وتعاني الاغتراب والعزلة الاجتماعية، ووجود قوى تستفيد من ذلك الوضع. تستغل بقاء الشرائح الأقل منها كما هي، وتحرص على استغلالها، الأمر الذي يوصلنا إلى أن غياب دور الدولة تجاه تلك الفئات يسهم في تفاقم مأساة التهميش ومعاناته"(١).

كما أن تتبع رؤى العالم من وجهة نظر الطبقات الدنيا، والمعذبين ومن يعانون الشقاء والبؤس في حياتهم، يُنبئ عن وجود وعي لدى هذه الطبقات بشكل يجب بحثه والوقوف عليه من قبل المبدعين، ومن جهة أخرى لرصد مدى انتشار طبقة المهمشين وتزايدهم؛ وحدود هذا التوسع لا على وجوده من الأساس.

---

(١) محمد يحيى عقل: المهمشون في الأدب، ط١، المؤتمر الأدبي الثاني عشر – إقليم شرق الدلتا (دورة الشاعر محمد الشهاوي)، وزارة الثقافة، المنصورة ٢٠١٣، ص٣٩.

إن طبقة المهمشين اتسع محيطها في مجتمعنا بشدة، وبخاصة بعد "ذيوع مفاهيم العنصرية والاقصائية، نتيجة للأزمات الاجتماعية، وكرد فعل على إخفاق الأنظمة السياسية في منح طبقات المجتمع الدنيا العناية الكافية، ففي ظل اهتزاز القيم وتشتت الذات الجماعية، وحيرة الذات الفردية وغموض الزمن الراهن والآتي، وتشظي المنطق المألوف؛ كل ذلك كوّن وخلق ذاتًا إنسانية مهمشة"(١).

وتتجلى أهمية هذه الدراسة في أنها تنقب في أعماق البنية السردية لرواية "دفاتر الوراق" لتفكيك رؤية تعكس واقعًا اجتماعيًا مأزومًا، هذا الواقع الذي انعكس في مكونات سردية تضامت لتكوين رؤية متكاملة الجوانب للعالم بجميع أجزائه. وعبّر عن هذه الرؤية شخصيات أجاد السارد رسمها لتصبح "في كثير من الأمثلة تُشكل النائب الفكري والاجتماعي أو السياسي عن منتج النص نفسه"(٢)، وكلما اتضحت رؤية العالم لدى الروائي – مبدع النص- وتحددت معالمه وفق إطار من الوعي المركز؛ فإن توظيف الشخصيات في إطار من هذه الرؤية يكون مُحملاً بدلالات قوية، وتتضام مجموعة من رؤى هذه الشخصيات لتُشكل في مجموعها رؤية للعالم بشكلي كلي. وبغير هذا التضام بين شخصيات العمل الأدبي لا تتحقق هذه الرؤية المبتغاة، لأن

(١) هويدا صالح: الهامش الاجتماعي في الأدب قراءة سوسيوثقافية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٥، ص ص ١٧ -١٨.

(٢) سليمان حسن: مضمرات النص والخطاب، د.ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٩٩، ص٣٥٩.

الشخصية وحدها ليست سوى "علامة فارغة؛ أي بياض دلالي لا قيمة له إلا من خلال انتظامها داخل نسق معين"(١).

وقد سعت رواية "دفاتر الوراق" في تقديم قطاع المهمشين وإبلاغ أصواتهم، بدءًا من البطل الرئيس "إبراهيم الوراق"، مروراً بالشخصيات الثانوية مثل "ليلى" وغيرها. فقدمت من خلال هذه الشخصيات مساحة واسعة من الأسئلة التي تُنتظر إجاباتها، ولتُقدم – كذلك – بحساسية فائقة صورة معتمة تضاد الصورة الزاهية المشرقة للمدينة، صورة فيها من القتامة الشيء الكثير، حيث تنذر الصورة الحقيقة بسقوط وشيك بما تحمل من جراح وأوجاع الطبقات المسحوقة. وقد وازنت الرواية في تقديمها لهذه الأصوات المهمشة لترسم رؤية للعالم "في سياق من إدراك كنه النفس (الذات)، والضمير (الوعي) والطبع، ليستعين بها النقد في وصف نموذج محدد للعالم، يُمكّن من فهم كيفية بنائه وعمله"(٢). وكلمة العالم هنا – كما تناولته الرواية – توحي بالشمول لكل ما هو محيط بالشخصيات؛ مثل: الكون الفيزيائي من أرض وجماد، وغير فيزيائي من حياة ومجتمع وثقافة وأفكار، إذ تمثل هذه الشخصيات جزءًا مهمًا من هذا العالم، ومن ثم تأتي رؤيتها لتجيب بصوت عالٍ عن سؤال: من نكون في هذا العالم؟

---

(١) فيليب هامون: سوسيولوجيا الشخصيات الروائية، ت (سعيد بن كراد)، د.ط، دار الكلام، الرباط ١٩٩٠، ص٨٠.

(٢) ناصر بن صالح الجحيلان: رؤية العالم عبر محيط الشخصية في القصة – دراسة شخصية نجية في قصة الغراب، مرجع سابق، ص٤٩.

حاول الروائي "جلال برجس"[1] أن يتناول قطاعات متعددة من المجتمع تمثل أجيالاً مختلفة كذلك، فنرى الجيل الذي شهد الهزائم العربية والانتكاسات المتتالية، ثم جيل المثقفين الذين يحاربون ضد الرأسمالية الجشعة؛ التي قتلت روح المعرفة وهمّشت كل الطبقات، وأزاحت كل ما لا ينفعها في تحقيق هدفها في السيطرة والقيادة. وأرتنا الرواية كذلك فئة نالها حظٌ وافر من التهميش (المرأة)، ويُمثلها في الرواية أكثر من الشخصية، ولكن السارد ركز على نموذج المرأة المقهورة، وأيضًا بيان حالة الاحتقار والتهميش التي يعانيها مجهولو النسب أو اللقطاء. وقامت عملية السرد في الرواية بضم "مجموعة من التطلعات والإحساسات والأفكار التي توحد أعضاء مجموعة اجتماعية، وفي الغالب أعضاء طبقة اجتماعية؛ لتُقيم بذلك كله رؤيتهم

(١) روائي أردني، مواليد ١٩٧٠م، يعمل في قطاع هندسة الطيران، وعمل كذلك في مجال الصحافة الأردنية. ترأس مختبر السرديات الأردني وعددًا من الهيئات الثقافية، وعمل كمقدم لبرنامج بعنوان (بيت الرواية).

له العديد من الأعمال الأدبية والروائية، نال العديد من الجوائز؛ فقد حصلت مجموعته القصصية (الزلزال) على جائزة روكس بن زائد العزيزي ٢٠١٢م، ثم حصلت روايته (أفاعي النار – حكاية العاشق علي بن محمود القصاد) على جائزة كتار للرواية العربية ٢٠١٥م، ومن قبلها حصلت روايته (مقصلة الحالم) على جائزة رفقة دودين للإبداع السردي في عام٢٠١٤م. وقد وصلت روايته (سيدات الحواس الخمس) إلى القائمة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية "بوكر" عام ٢٠١٩م، وتوجت رواية (دفاتر الوراق) هذه المسيرة بنيل "بوكر" عام ٢٠٢١م.

للعالم"[١]، ولتصبح رؤية العالم الناتجة عن هذه التصورات والجدليات تصورًا جماعيًا يتجاوز الرؤية الفردية.

وسلطت الرواية الضوء على الصراع الدرامي بين طبقات المجتمع بإبرازها التناقض الشعوري والفكري والمعيشي بينهم، واعتمدت في بلورة رؤية العالم على إظهار أكثر من رؤية قد تبدو متعارضة ظاهريًا، لتكون المحصلة أن تجمعت الرؤى الجزئية للعالم في رؤية واحدة متكاملة تنقل وعي الشخصيات جميعًا، لأن "وعي الذات عند البطل وهو يلف عالم الأشياء؛ لا يمكن أن يوضع إلا بجوار وعي آخر، كما أن حقل رؤيته لا يمكن أن يُرتب إلا بجوار حقل آخر للرؤية، وأيدولوجيته لا يمكن أن تصنف إلا بجوار أيدولوجيا أخرى"[٢].

وفجرت رواية "دفاتر الوراق" أيضًا حالة الصمت وكسرت أسوار العجز عندما دوّت بها أصوات المهمشين، واتسمت رؤيتهم للعالم بسمات تجنح في مجملها للعنف والتمرد والخروج عما يفرضه المجتمع عليهم. إذ أرادوا أن يصل صوتهم للمجتمع لينالوا حقهم في العيش الكريم والحرية، وبيّنت الرواية حالة الفصام الحاد الذي يعيشه المجتمع على مستوى الفرد والجماعة، وأن الأفراد لن يصبروا كثيرًا على حالة التردي والتهميش والاحتقار التي فُرضت عليهم. إن التمرد وفك هذا الحصار سيصبح طريقهم الذي يرتضونه كحل لا بديل له، ومن هذا المنطلق يأتي هذا البحث ليمعن

(١) عبد الرحمن بوعلي: مدخل إلى سوسيولوجيا الأدب والرواية، دار الأيام للنشر والتوزيع، عمان ٢٠١٥، ص١٩.

(٢) حميد لحمداني: النقد الروائي والأيدولوجيا، مرجع سابق، ص٥١.

النظر في رؤى هؤلاء المهمشين للعالم وضمها جميعًا في رؤية واحدة، لأن "الكائن في عزّ فرديته وتفرده لا يخطر بالبال خارج الروابط التي تصله بالآخرين، إنه كذات مفردة ومعزولة عن محيطها لا يسعه تشكيل رؤية كلية بدون عناصر يحيلها إلى الغير. فليس إلا عبر الاخرين بإمكانه تحقيق الذات"(١).

الدراسات السابقة:

استفاد البحث من دراسات سبقته في حقل رؤية العالم، وكذا قضية المهمشين في الأعمال الأدبية، ولا توجد دراسة في رواية "دفاتر الوراق" سبقت هذا البحث – غير مقال سيوضحه الباحث. وهذا بيان ببعض هذه الدراسات التي أفاد منها البحث:

١. دفاتر الوراق لجلال برجس: بلاغة التعدد الصوتي ونقد العالم الباطني للمدينة، مقال لمحمد عبيد الله، مجلة أفكار، ٣٨٨ع، الأردن٢٠٢١، ص ص ٥٤ – ٥٨.

تناول هذا المقال في صفحاته الأربع عددًا من النقاط، أشارت الأولى إلى فوز الرواية بجائزة (بوكر) ٢٠٢١، وأوضحت النقطة الثانية أن الرواية تعيد صياغة الصلة بين الرواية والمدينة المعاصرة، وتؤكد في مجمل طرحها أن

(١) فانسون جوف: أثر الشخصية في الرواية، ت (حسن حمامة)، ط١، دار التكوين، دمشق ٢٠١٢، ص٤١.

للرواية القدرة على تناول عالم المدينة المعقد وعلى إمكانية تقديم قراءات متعددة لمكونات عالم المدينة.

بينما أكدت النقطة الثالثة على أن تشكيل الرواية جاء متوافقًا مع رؤيتها الممتدة على مستوى الحبكة والتركيب، وأنها اعتمدت على خاصية التعدد الصوتي. وأكدت النقطة الأخيرة على أن الرواية قدمت صورة جديدة من بلاغة القطاع المهمش الممثلين في معظم شخصياتها. ليبرز المقال في النهاية مدى التبادل المتوازن بين عناصر السرد والوصف والحوار في الرواية.

ووجه الاختلاف بين هذه المراجعة النقدية والدراسة الحالية هو المنظور الذي سيتناوله هذا البحث، حيث تهدف هذه الدراسة إلى إبراز التصور العام والجزئي للعالم عند شخصيات هذه الرواية، وذلك من خلال بيان وجهتي نظر مختلفتين عند شخصية البطل الرئيسي نفسه، ثم من خلال تناول قضايا جزئية تبين رؤيا العالم لدى شخصيات الرواية الثانويين، ثم ضمّ هذه الرؤى الجزئية في رؤية واحدة للعالم تمثل صوت المعذبين والمهمشين. بينما كانت نقطة الانطلاق في المقال السابق سردية، فتتبع عناصر السرد في الرواية، ومدى توازنها لتقدم الرؤية التي يبتغيها السارد، وكذا مدى نجاح الرواية – بعناصرها المختلفة - في إقامة تفاعل يعبر عن واقع المدينة المعقد.

٢. مفهوم رؤية العالم في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، لأحمد زايد، المجلة الاجتماعية القومية – عن المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، مجـ ٥٢، ٣ع، القاهرة سبتمبر ٢٠١٥.

٣. التهميش الاجتماعي في الرواية العربية المعاصرة – دراسة في الرؤيا والتشكيل، لحامد محمد المطيري، رسالة دكتوراه، كلية الدراسات العليا – جامعة الأردن، ٢٠١٦.

٤. جماليات الرواية العربية – أبنية السرد ورؤية العالم، ليسري عبدالله، دار بدائل للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٨.

٥. الرؤية إلى العالم في الرواية العربية – قراءة في روايات جبرا إبراهيم جبرا وحيدر حيدر، لعلي نسر، دار المؤلف للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ٢٠١٩.

مصطلحي رؤيا العالم والتهميش:

نادى جولدمان بمقولة رؤية العالم worldview حين قدم "تصورًا مركزيًا يرى بمؤداه أن الأدب والفلسفة كلاً في مجاله، يعبر عن رؤية العالم"[(١)]، وقد تُدولت هذه المقولة في حقول معرفية كثيرة، ما بين علم الاجتماع وعلم النفس وكذا الفلسفة؛ وبالطبع المجال الأدبي، وبذا تعددت تعريفات هذا المصطلح، وإن كانت الحقول جميعها تتفق على أن رؤية العالم هي في مجملها وجهة نظر فردية للحياة، أو تتحد هذه الوجهات لتصبح مفهومًا مشتركًا لمجموعة من الناس، بينهم رابط ثقافي أو عرقي.

ويمكن لنا أن نتوقف قليلاً أمام هذا المصطلح ليكون نقطة ارتكاز للولوج إلى عالم الرواية، إذ نري العرب قديمًا يربطون بين الرؤية الحسية والتصور

(١) محمود نسيم: المخلص والضحية رؤى العالم لدى محمود دياب وصلاح عبد الصبور، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٦، ص٢٤.

الذهني لما يشاهدون، فقد أورد ابن منظور في لسانه "قال بن سيده: الرؤية النظر بالعين والقلب، والنظر بالقلب قصدوا به حصول الشيء في العقل"(١)، واضحٌ تمامًا أن المقصود هو حدوث تصور ذهني مرافقٌ وتالٍ للرؤية المادية، وهذا يعني بوجه ما تصور الفرد الشخصي ورؤيته لما يراه، وموقفه الذاتي تجاه ما يراه من أشياء ومواقف.

وقد بلور المعاصرون هذا المفهوم بعد أن ظهرت في بداية القرن العشرين اتجاهات نقدية ضخمة، تحاول رصد ومسايرة المتغيرات المتسارعة في المجال الأدبي والنقدي، وكذلك الجانب الاجتماعي والثقافي، وكان اتكاء الاتجاهات الجديدة على مصدرين، أولهما: "الشكلية الروسية التي أسستها جماعة موسكو ونادت بأدبية الأدب، وكان هذا معناه تطبيقيًا التحول بالنقد الخارجي إلى النقد الداخلي الذي لا يربط النص بعوامل خارجية، إنما يستعين باللغة أداة نقدية تتيح حرية الحركة داخل البنية النصية"(٢). أما المصدر الآخر فهي الرؤية البنيوية التي ضمت أكثر من منهج، فهناك البنيوية والأسلوبية والتفكيكية. وتنطلق جميعها من "تناول النص في كيانه اللغوي باعتباره بنية ونسقًا قائمًا بذاته، وأتت في الأخير البنيوية التكوينية محاولة التوفيق بين الدراسة الداخلية للنص؛ والالتفات إلى المعطيات الخارجية المحيطة به، وظهر هذا المنهج إثر جهود عدة مفكرين ونقاد منهم: جورج

(١) محمد من مكرم بن علي بن منظور: لسان العرب، ط١، دار إحياء التراث – مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ١٩٩٦، مادة (رأى).

(٢) انظر: رايس كمال: من الشكلانية إلى البنيوية – مسافة المفهوم والرؤية، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مجـ٧-٦ع، الجزائر ٢٠١٨، ص ١١- ١٢.

لوكاتش وتلميذه لوسيان جولدمان، الذي بلور هذا المنهج محددًا مفاهيمه"[١].

أما عن تعريف جولدمان لمصطلح رؤية العالم، فقد عدّه "رؤية كونية تضم مجموعة من التطلعات والأحاسيس والأفكار التي تجمع أفراد فئة ما، أو غالبًا تجمع طبقة اجتماعية وتجعلهم يناوئون المجموعات الأخرى"[٢]، إن هذا المفهوم الذي طرحه جولدمان يبين أن نظرة الإنسان منفردًا أو مع مجموعة تشبهه، لما يحيط به ووعيه الداخلي بهذه النظرة هي الأساس لرؤية العالم، فاللجوء إلى "مفهوم النظرة إلى العالم من شأنه وحده أن يسمح بتقصي الإنسان للواقع، وتفسير التاريخ والمجتمع من حيث أنهما خطابان يحاول الباحث أن يجعلهما شفافين"[٣].

إن مفهوم رؤية العالم لدى جولدمان عبارة عن واقعة اجتماعية تتلاحم فيها رؤية طبقة اجتماعية معينة مع الواقع إما قبولاً أو رفضًا، فليس ثمة سطحية في مفهوم الرؤية بحيث تصبح مجرد انعكاس زائف أو تعبير مباشر عن الواقع. بل تنفذ لداخله وتقيم تفاعلات جدلية من خلال "تجاوز الآلية التي وقع فيها التحليل الاجتماعي التقليدي للأدب، وذلك بتركيزه على بنية

(١) انظر: جابر عصفور: نظريات معاصرة، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٨، ص٨٣ وما بعدها.

(٢) بول باسكاري: لوسيان جولدمان والبنيوية التكوينية – ضمن كتاب (البنيوية التكوينية والنقد الأدبي)، ت (محمد سبيلا)، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٨٦، ص١١٥.

(٣) المرجع السابق: ص١١٣.

فكرية تتمثل في رؤية للعالم تتوسط ما بين الأساس الاجتماعي الطبقي التي تصدر عنه، والأنساق الأدبية والفنية والفكرية التي تحكيها هذه الرؤية"[١].

ومن الواضح ارتباط هذا المصطلح بالطبقة الاجتماعية لأن "المقولات العقلية لا توجد في الجماعة إلا في شكل نزاعات متقدمة نسبيًا، نحو تماسك أطلقنا عليه رؤية العالم"[٢]، وهذا يشبه إلى حدٍ كبير الجسد الواحد ككل، ولكنه مكون من أعضاء متعددة، فالمجتمع يتكون من مجموعة أفراد تحكمهم (وتربطهم) علاقات متشابكة ومتشعبة، وهي في مجموعها تشكل رؤية العالم، وتصبح مهمة هذه الرؤية البحث "عن التوافق بين الأبنية الصورية المطلقة للأعمال الأدبية والفكرية، وبين الأبنية التنظيمية للمجتمع"[٣].

وينتج عن ارتباط مفهوم رؤية العالم بالطبقة الاجتماعية – التي تختلف مقومات وجودها من طبقة لأخرى – أن اختلفت أنواع رؤية العالم فمنها: المأساوية، العقلانية، الجدلية، تبعًا لاختلاف الطبقة التي تبلورت عنها هذه الرؤية، ومع تنوع رؤية العالم فإن وظائفها تتعدد كذلك "فيمكن أن يكون لها

(١) تيري إيجلتون: الماركسية والنقد الأدبي، ت (جابر عصفور)، ط٢، منشورات عيون المقالات، الدار البيضاء ١٩٨٦، ص٣٨.

(٢) لوسيان جولدمان: مقدمات في سوسيولوجيا الرواية، ت (بدرالدين عرودكي)، ط١، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا ١٩٩٣، ص٢٣٤.

(٣) عمر عيلان: في مناهج تحليل الخطاب السردي، ط١، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٨، ص٢٠٥.

تأثير على مدى العصور، ووظائف مختلفة كذلك كأن تكون ثورية أو دفاعية أو محافظة منحطة"[١].

وبشكل عام فإن جولدمان قد أرسى حدود مصطلح رؤية العالم وبين معالمه، فقد عدّ كل عمل فني وأدبي كبير هو في ذاته تعبير عن رؤية للعالم، وأن المبدع لا يكتفي بتصوير الواقع تصويرًا آليًا بل يعبر عن الواقع من خلال واقع آخر يصنعه في النص، فيصبح الإبداع الدبي كروح تسكن في عالم الأدب. ويتحول المبدع إلى عبقري "لا يحتاج إلا للتعبير عن حدسه ومشاعره ليقول في الوقت ذاته ما هو جوهري لعصره، وللتحولات التي خضع لها"[٢]، وتكون رؤية العالم عندئذٍ عملية نسجٍ لوجهة نظر جماعية وعاها المبدع وجسّد الأفكار في شكل نص، تسود فيه روح متماسكة ومتلاحمة، ومعبرة عن صراع الطبقات مع الواقع، ويجتهد المبدع في تقديم الحلول والرؤى الكاشفة، ويتحول النص الأدبي من وثيقة أدبية عادية إلى نص محملٍ بأفكار وتطلعات طبقة اجتماعية عبر تجسيد رؤيتها للعالم.

أما مصطلح المهمشون والتهميش؛ فليس ثمة جذور لغوية له في المعاجم العربية بمعنى الإقصاء والإبعاد، فأغلب هذه المعاجم اللغوية أشارت إلى أن معنى (همش) هو الكلام السريع والحركة غير المتزنة، ودارت المعاجم الحديثة حول معنى التعليق على الكتابة. وأقرب المعاني في كلمة

---

(١) محمد نديم خشفة: تأصيل النص (المنهج البنيوي لدي لوسيان جولدمان)، ط٢، مركز الإنماء الحضاري، حلب– سوريا ١٩٩٧، ص ٥٠.

(٢) لوسيان جولدمان: الإله الخفي، ت (زبيدة القاضي)، د.ط، الهيئة العامة السورية للكتاب – وزارة الثقافة، سوريا ٢٠١٠، ص ١٤.

(التهميش) ما صدر من مجمع اللغة العربية من قرار يسوغ استعمال لفظ التهميش بمعنى قليل الأهمية[١]. وهذا الأمر يدفعنا إلى تتبع هذا المصطلح في مظانه في علم الاجتماع، إذ نراه قد انتشر تحت مفهوم (الاستبعاد الاجتماعي) ولكن دلالة كلمة التهميش والمهمشين أفضل في المعنى، حيث تعطي إشارات للإقصاء والدونية معًا، وهناك مفاهيم أخرى للتهميش في علم الاجتماع، منها "الاستبعاد والانعزال في أحياء مغلقة أو شبه مغلقة، والطبقات الدنيا، والإنسان المهمش أو المستبعد هو الذي لا يشارك في الأنشطة الأساسية للمجتمع الذي يعيش فيه"[٢].

ويأتي مصطلح المهمشون والتهميش كنقيض لمفهوم المندمجين والاندماج أو المستوعبين، وعملية التهميش تعد أمرًا كاشفًا لديناميكية مجتمع معين وبنيته التركيبية، إذ لا يرجع وضع المهمش في هذا المجتمع أو ذاك إلى "أمر شخصي أو تدني قدرات فردية، بقدر ما هو حصار بنية اجتماعية محددة ورؤى محددة، كما أن مصطلح المهمشون لا ينصب على الفقراء وحدهم ولا على الأغنياء، إنما هو مشكلة مجتمع"[٣]. فالمهمش إذاً يفسر– كمصطلح – الطرق التي يتم بها استبعاد بعض الفئات أو دفعهم عن مراكز النمو والتنمية، وينظر إليهم عادة كأفراد أو طبقات أقل، او طبقات دونية. وبشكلٍ

(١) انظر: قرارات مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة ٢٠٠٠، ص٣٧٠.

(٢) جون هيلز وآخرون: الاستبعاد الاجتماعي، ت (محمد الجوهري)، سلسلة عالم المعرفة، ٣٤٤ع، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ٢٠٠٧، ص٢٦.

(٣) المرجع السابق: ص١١.

عام فإن المهمشون هم "الفئات التي تقع خارج النظام الاجتماعي بدراجات متباينة، أي فئات تقع خارج إطار الخدمات التي يقدمها النظام الاجتماعي"(١).

وتتعدد تصنيفات المهمش تبعًا لتنوع سبب التهميش في مجتمعه، وهي كلها أسباب خارجة عن إرادته، فهناك "التهميش الوطني أو الهوية الوطنية وهناك التهميش الطائفي أو الديني، وهناك التهميش اللوني أو الجنسي أو العرقي، وهناك تهميش الأحلام والطموحات وتهميش المكان، وتهميش الأنثى وغير ذلك من صور التهميش المتعددة. وفي ظل هذه الصور وتدنيها تتجلى صورة الإنسان الذي يعيش قابعًا بالآلام في هذا الوضع، أو محاولاً كسر قيوده"(٢).

ولقد تأثرت الرواية العربية بحالة الوعي التي تسري في قطاعات لا يستهان بها من فئات المهمشين، حيث خرجت "القطاعات الاجتماعية والمجموعات البشرية من حالة التهميش إلى حالة الوعي بكيانها، والمطالبة بحقها وتسجيل حضورها كالنساء والعبيد والأقليات العرقية والدينية والثقافية وغيرها"(٣)، فسجلت الرواية انتفاضة هؤلاء المهمشين وأثبتت رؤيتهم

---

(١) محمد يحيى عقل: المهمشون في الأدب، مرجع سابق، ص٣٥.

(٢) حامد محمد المطيري: التهميش الاجتماعي في الرواية العربية المعاصرة – دراسة في الرؤيا والتشكيل، رسالة دكتوراه بإشراف (محمد أحمد عبد العزيز القضاة)، كلية الدراسات العليا، الأردن ٢٠١٦، ص١١.

(٣) فرج رمضان: الهامشية والحداثة العربية، ضمن وقائع قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تحت عنوان (المركز والهامش في الثقافة العربية)، صفاقس – تونس ١٩٩٥، ص٦١.

وأفكارهم، في محاولة منها لتصحيح المسار والخروج من الوضع المأزوم الذي يوجد في نسيج كل المجتمعات. وحاولت رواية ما بعد الحداثة تقديم رؤيتها للعالم من خلال صوت المهمشين، ونادت "بعدم ثبات المعنى وعدم جوهريته وتبنت السطحي والمبتذل والمهمش، وحاربت ثقافة النخبة والنخبوية سعيًا منها إلى تحقيق الوئام والعدالة، لتختفي الطبقية والهرمية، وتلتقي الفوارق من غير تحيز"(١).

ولا شك بأن التغيرات المجتمعية وما حدث من ذوبان للذات الإنسانية في خضم العولمة، وظهور الرأسمالية والتوجهات الاقتصادية العالمية قد ألقى بظلاله على الرواية لتصبح فعل كتابة "مقاومًا لتهميش الذات، وتنفتح في موضوعاتها وأساليبها على العجيب والمنسي والهمش والمحظور"(٢)، وتبرز الرواية عبر بنيتها الفنية رؤى المجتمع المختلفة، بما فيها رؤية المهمشين على سبيل الدفاع عنهم، وتصوير هذه الأزمات المصيرية التي تواجههم بعدما ظلمهم المجتمع ولم يلتفت إليهم.

منهج الدراسة:

لاستجلاء رؤية العالم من وجهة نظر المهمشين في رواية "دفاتر الوراق"، وبيان مدى وعيهم بمكانهم وسط مجتمع لا يوليهم الاهتمام المنتظر؛ فإن

(١) علي شناوة – رحاب خضير عبادي: استطيقا المهمش في فن ما بعد الحداثة، ط١، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان ٢٠١١، ص١٣.

(٢) مجدي أحمد توفيق: أدب المهمشين، مجلة أدب ونقد، ٢٤٦ع، حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي، القاهرة ٢٠٠٦، ص٢٧.

هذا البحث سيعتمد منهج البنيوية التكوينية في إجراءاته، وهو الأمر الذي سيتيح درس الرواية عبر اتجاهين متقاطعين، أولهما: اتجاه داخلي ندقق فيه العلاقات الرابطة بين جوانب العمل الروائي ذاته، والاتجاه الثاني يكون خارجيًا من خلال استيضاح علاقة هذه البنية بالأطر الاجتماعية التي أنتجته وفي ذات الوقت يعبر عنها.

وجاء الارتكاز على منهج البنيوية التكوينية Genitic strturalism في هذا البحث؛ بوصفه منهجًا يبحث في "العلاقات الرابطة بين الأثر الأدبي وسياقه الاجتماعي والاقتصادي الذي سبق تكوينه، ولا ينظر إلى هذه العلاقات على أنها مجرد تساوق أو توازٍ بسيط بين بنية الأثر الأدبي وبين شروط انتاجه الاجتماعية والاقتصادية"(١)، بجانب إيمان البنيوية التكوينية بوجود علاقة بين الأدب والواقع تأثيرًا وتأثرًا؛ فإنها اعتمدت كذلك على البنيوية التي عدّت النص بنية مغلقة عما حولها أو ما هو خارجها، فجمعت التكوينية بين ما هو ماركسي وما هو بنيوي فخرجت في حلة قشيبة، مناسبة لاستقراء النصوص التي يُراد من خلالها بلورة رؤية العالم لطبقة معينة.

وسوف تحاول الدراسة توضيح رؤى العالم لطبقة المهمشين في رواية "دفاتر الوراق" في ظل منهج البنيوية التكوينية استناداً إلى مبدأين، أولهما "تبين نوع العلاقة الموجودة بين الفكر والواقع، وثانيهما أن للفكر موقعه

(١) محمد نديم خشفة: تأصيل النص (المنهج البنيوي لدي لوسيان جولدمان)، مرجع سابق، ص١٠.

الطبقي في المجتمع"[١]، وهذا يعني أن نظرتنا للرواية ستهتم بالعمل الأدبي دون إغفال للمحيط الذي تعبر عنه هذه الرواية، أي أننا ننظر بعين للبنية الأدبية وبعين أخرى للبنية الاجتماعية.

ويلحق بالمنهج المتبع في تحليل الرواية بيان بأهم المصطلحات الإجرائية التي تعتمدها البنيوية التكوينية، والتي ستفيد البحث في استقرائه للرواية، فهناك مصطلحي البحث والتفسير Explanation& Understanding وهما وثيقي الصلة ببعضهما، وفي هذا الإجراء يتم الاقتصار على كل ما هو داخل النص من "كشف عن بنية دالة محايثة في الموضوع المدروس، ثم إدماج هذه البنية ببنية شاملة تغدو البنية الأدبية عنصرًا تكوينيًا من عناصرها"[٢]. وهناك أيضًا مصطلح البنية الدالة The meaningful structure والذي يُبحث من خلاله عن شمولية النص عبر تماسكه وانسجامه، وهذا يعني أن البنية الدالة تشير إلى "الواقع والقاعدة معًا، لأنها تحدد في آن واحد المحرك الحقيقي (الواقع)، والهدف الذي تصبو إليه هذه الشمولية التي هي المجتمع الإنساني"[٣].

وأخيرًا، مصطلحي الوعي القائم Real consciousness، والوعي الممكن Possible consciousness حيث تربط البنيوية التكوينية بين الوعي

---

(١) بشير تاوريرت: مناهج النقد الأدبي المعاصر - دراسة في الأصول والملامح والإشكالات النظرية والتطبيقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٨، ص ٤٢.

(٢) جابر عصفور: نظريات معاصرة، مرجع سابق، ص١٣٠.

(٣) جمال شحيد: في البنيوية التركيبية – دراسة في منهج لوسيان جولدمان، دار ابن رشد للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٢، ص٨١.

والنص بشكل وثيق، فالوعي القائم هو وعي آني ينجم عن "ماضي بمختلف أبعاده وظروفه وأحداثه، عندما تسعى كل مجموعة اجتماعية لفهم الواقع انطلاقًا من ظروفها المعيشية والاقتصادية والفكرية والدينية"(١)، فهو إذاً وعي وصفي لحظي يقوم على خبرات سابقة وكل ما هنالك هو تعبير عنه.

بينما الوعي الممكن هو عملية استشرافية، فهو إذاً يحتوي الوعي الآني (القائم) ويتجاوزه في ذات الوقت لأنه "يتضمن الوعي الفعلي وإضافة عليه أنه يُسند إليه، ولكنه يتجاوزه"(٢)، إن هذه المصطلحات السابقة توضح على أي مدى تهتم البنيوية التكوينية بالنص من الداخل من حيث بنيته الفنية، ومن الخارج حيث العوامل المشكلة له، وأثرت فيه وتأثرت به.

(١) صالح ولعة: البنيوية التركيبية ولوسيان جولدمان، مجلة التواصل، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، الجزائر٢٠١٢، ص٢٥٥.

(٢) صالح سليمان عبد العظيم: سوسيولوجيا الرواية السياسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٨، ص٨٥.

عرض رواية (دفاتر الوراق)

تنطلق رواية "دفاتر الوراق" من حكايات المهمشين في المجتمع وتدور رحى حكاياتها بين عامي ١٩٤٨ – ٢٠١٩، وتنوعت حكايات المهمشين بين إنسان فقد بيته وسُلب منه محله، أو أناس مجهولو النسب (لقطاء)، أو آخرون لا ينتمون إلى عائلات كبيرة ولها ثقلٌ في المجتمع، أو أولئك الذين طحنهم الفقر والغلاء فما عادوا يستطيعون العيش في ظل هذا الغلاء الفاحش، أو نساء مقهورات يمارس عليهن المجتمع سلوكيات تنحرهن وهن أحياء. وتتقاطع مصائر هذه الشخصيات المتعددة لتبرز في النهاية معاناتهم جميعًا؛ وكيف أن البيت / الوطن لا يوليهم الاهتمام المناسب له.

أما عن الشخصية المحورية في رواية "دفاتر الوراق" فهي "إبراهيم جادالله"، الذي اشتهر بلقب "الوراق" نظرًا لعمله ببيع الكتب مثل أبيه "جادالله"، وعن "إبراهيم" فهو إنسان مثقف متعطش للقراءة والمعرفة، قرأ كثيرًا من الكتب والروايات لدرجة امتلاكه القدرة على تقمص الشخصيات التي داخل هذه الروايات، ويتصرف مثلها بالضبط، مثل: شخصية سعيد مهران في رواية اللص والكلاب، وشخصية سي السيد (أحمد عبد الجواد) في الثلاثية، وغير ذلك من الشخصيات.

وتدور القصة الإطار حول تدهور وضع الشخصية الرئيسة "إبراهيم الوراق"، بعد أن استولى رجل متنفذ على محل بيع الكتب الخاص به، ليقيم بدله محلاً لبيع الهواتف المحمولة، ويمثل هذا المحل واحدًا في سلسلة كبيرة أنشأها هذا الرأسمالي الكبير- وتكتمل مأساة "إبراهيم الوراق" بطرد صاحب المنزل له لأنه لم يدفع مستحقاته المتأخرة، ليصاب "إبراهيم" بفصام

عقلي ويؤمن بوجود صوت باطني (من بطنه) يتحدث معه ويدفعه لارتكاب جرائم وسرقات بنوك، ليستعيد بهذه الأفعال بعضًا من حقه وحق المهمشين أمثاله. ونرى الجدلية المستمرة طوال النص بين الشخصية المسالمة التي تمثل الوعي "إبراهيم"، الذي يريد الاستسلام لمصيره ويساير المجتمع، وبين الصوت المتمرد الباطني الذي يرى أن المجتمع قد ظلمه ظلمًا بينًا وأضاع حقه وحقوق قطاع عريض من الناس ولا بد له من دفع الثمن.

ويقاوم "إبراهيم" الواعي وتميل الكفة لصالحه أحيانًا وأحيانًا أُخر للصوت الباطني، لتظل الغلبة في النهاية معلقة ولا تحسم أبدًا، ويعلنها الصوت الباطني لـ "إبراهيم": أنك "**غبي، لا ترى إلا ما تريد أن تراه، هل تعتقد أن العالم يسير وفق ما رأيته على أرض الواقع؟ وعلى شاشة التلفاز! وفي كتبك اللعينة؟ الحياة أعقد مما تتخيل، هناك دماء تسفك واحتيالات كثيرة تحدث، وتصفيات بأشكال عديدة لا يعلم عنها إلا عدد قليل، أنت ومن هم على شاكلتك ترون الساسة يبتسمون وراء الميكروفونات يتشدقون بأكبر كذبة عن الوطن والأمن الاجتماعي، وتصدقونهم**"(١).

إن رواية "دفاتر الوراق" أشبه بمصباح ليزر قوي يسلط ضوءه الساطع على بؤر بعينها، فنراها تارة قد طوفت مع شخصية "ليلى" ورفاقها من مجهولي النسب (اللقطاء) الذين يذبحون مرة بعد مرة من اللفظ القاتل (أولاد حرام)، وأثبتت توقهم إلى عائلة / وطن ليُجمع شتاتهم، وليحصلوا على أمان

(١) جلال برجس: دفاتر الوراق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان ٢٠٢٠، ص٥٢.

لم يذوقوه أبدًا، وتارة أخرى تطوف الرواية مع الأحلام المهدمة، والآمال التي ذوت، والحب الضائع مع شخصية "جادالله"، حين نقلت لنا تجربته مع الاعتقال دفاعًا عن رأيه السياسي وما أعقب ذلك من انكسار روحه وتحطم فؤاده.

وتتوقف الرواية كذلك أمام الطبيب النفسي الذي يشعر بالدونية لأنه منسوب لأب غير والده الحقيقي، وتجاهل عائلته الكبيرة له لأنه لا يُنسب لها، مما سبب له عقدة نقص ظل يتجرع مرارتها طول عمره. وخلاصة هذا العرض لرواية "دفاتر الوراق" أنها مثقلة بحكايات ضحايا كثيرين للمجتمع، وتتبعت حياة الشخصيات المهمشة منذ ولادتهم حتى لحظة انهيار الحلم وتلاشي الأمل، أمام سطوة المجتمع وجشعه واستغلاله القذر، وكذلك أمام غلبة المصالح الشخصية. لتبين الرواية أن المجتمع يتحمل وزر هؤلاء الذين يدفعهم ليكونوا مجرمين أو مشوهين نفسيًا، فالضحايا لم يولدوا أشرارًا ولا مرضى نفسيين، ووضعت رواية "دفاتر الوراق" أصبعها على الجرح المجتمعي، لنتلافى سقوط المزيد من الضحايا والأبرياء، فلا نُهمش أحدًا ولا نقصي فئة ما، ليصل المجتمع إلى حالة من الأمان النفسي لكل من فيه.

أولاً: رؤيا العالم عند بطل الرواية:

اعتمدت رواية "دفاتر الوراق" في إظهار رؤية البطل الرئيسي تقنية تعدد الأصوات السردية بتكنيك سردي جديد؛ لتبين اختلاف وجهات النظر عند الشخص نفسه، وأحدث هذا التعدد مفارقة ملموسة في طريقة نسج البنية السردية للرواية. وقد قام المبدع بسوق هذه الآراء المتعددة من خلال عملية تشخيص وتحليل فائقة، وأفضى هذا التمايز في وجهات النظر في رواية "دفاتر الوراق" في محصلته إلى بنية كلية لها شمولها ودلالتها العميقة عن الفكرة الأصيلة التي يبتغيها السارد.

وتبرز الأصوات السردية أكثر حين تقرر وجهة نظرها من خلال "الخطاب الذي تعكسه، سيما وأنها تصدر عن الشخصية فتعكس تفكيرها وموقفها مما يجري حولها، إنها تعكس أنا الشخصية"(١). ولقد حاول (جلال برجس) أن يفتح من خلال تعدد الأصوات فضاءات داخلية، ويجعلها تتداخل مع بعضها ليكوّن خطابًا يعتمد على الحوارية بين هذه الأصوات، ولتصبح شخصيات الرواية لا "يمثلون الشخص الغائب وإنما المخاطب، الذي يتحاور معه الروائي ويتحداه ويصغي إليه، وبالتالي لا تكون العلاقة بين الروائي وشخوصه علاقة رضوخ وخضوع له من قِبلهم؛ وإنما علاقة اكتشاف متبادلة بينهم"(٢).

---

(١) سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٥، ص١٣٦.

(٢) ميخائيل باختين: الملحمة والرواية، ت (جمال شحيد)، معهد الإنماء العربي، بيروت١٩٨٢، ص١٢.

ويتمظهر تعدد الأصوات بشكل واضح في شخصية البطل الرئيس "إبراهيم الوراق"؛ حيث نرى صوت الوعي الذي يمثله البطل، وتظهر من خلاله رؤية معينة للعالم بمساعدة الوعي القائم والممكن، وهناك أيضًا الصوت الباطني الذي يجادله ويحاوره في كل خطوة يخطوها، وله – كذلك – رؤيته المستقلة للعالم والمغايرة نوعًا ما لرؤية "إبراهيم" الواعي. هذا الصوت الداخلي هو صوت يعبر عن حالة انفصام حادة يعيشها "إبراهيم الوراق" بعد أن تعرض لفشل تلو فشل في حياته، وبعد أن قضى الرأسمالي "إياد" على أحلامه واستولى على محل الكتب، ولم يقدر "إبراهيم" على مجابهته، ولم يُقدّر المجتمع أبدًا قيمة هذا العلم وأهمية الثقافة؛ بل على العكس من ذلك تمامًا. لذا فقد توحش الصوت الباطني وبدأ يفرض قناعته ورؤيته على إبراهيم بعدما رأى الظلم يستفحل والشر يزيد، والفساد يستشري في المجتمع، ويبدأ الصوت بعد ذلك بالتعاون مع "إبراهيم" في رصد معاناة كل فئات المجتمع المهمشة.

إن كل رؤية يُفضي بها "إبراهيم" أو ذلك الصوت الآخر لتؤصل رؤية شاملة للعالم، لأنها في الأخير تضيء بؤرًا معرفية جديدة، وكل صوت يوصل بانفراده نقطة من الحقيقة "كما هو اللحن في الموسيقى الذي ينبثق هو الآخر ويتواصل ويندمج مع صوت آخر- ناتج من صلب اللحن الموسيقي، أو من خلال ألحان (أصوات) أخرى تكثف اللحن عبر المسار الشكلي الذي يرتئيه المؤلف"[1]. لذا جاء تعدد الأصوات بين شخصية "إبراهيم" والصوت الباطني

(١) محمد أسعد علي: البوليفونية بين الأدب والموسيقى، مجلة أقلام، ١+٢ع – سنة٢٧، بغداد١٩٩٢، ص١٠٩.

مؤصلاً لرؤية كلية للعالم والمجتمع يستهدفها السارد في رواية "دفاتر الوراق"، وتعددت بذلك وجوه الحقيقة تبعًا لاختلاف الناطقين بها، ومع إيهام القارئ باختلافها فإن المحصلة النهائية هي أن الحقيقة واحدة، والرؤية واحدة، ولكنها تصل بأصوات ووجهات نظر متعددة فقط، وكل صوت له طريقة عرض لرؤيته الخاصة، والتي تُشيّد في مجموعها الرؤية الكلية.

إن إبراهيم يتساءل بمرارة عن الغربة التي يحياها في هذا العالم، إنه مثقل بالحزن كقطعة إسفنج مشبعة بالماء **"لكن هل عشت أم مت؟ سؤال ظل معلقًا منذ تلك السنة أمام عيني، وأنا أرى كيف تركت الغرابة كل شيء في هذا العالم وأتت لتلتصق بي كذرات معدنية تتكوم على قطبي مغناطيس"**(١)، بدأ الوعي القائم في شخصية "إبراهيم" في تحديد رؤيته للعالم من حوله، وتحديد – كذلك – مركزه منه وموقف العالم منه. فهو يرى نفسه غريبًا ليس بين الأحياء ولا بين الأموات، كل ما يعيش فيه غريب وعجيب كأنه في حلم سيريالي يبعده عن الواقع الذي يرغب في أن يعيشه كأي إنسان طبيعي.

وينتقل به الوعي القائم إلى استشراف قادم من خلال الوعي الممكن، ليقرر استمرار سقوطه، إنه وصل إلى هذا الوضع عبر مراحل سقوط متتالية ومتتابعة؛ وليست حالاً مفاجئة **"كنت أتخيل لحظة سقوطها وإلى أي شكل ستؤول؟ وأتساءل عن كل ذلك المصير، فالأشياء لا تسقط جزافًا. فكرة بدلت العالم حين هوت التفاحة على رأس نيوتن، يوم قالوا لي أن أمي ماتت سمعت صوتًا همس في أذني: (لقد سقطت)"**(٢)، فالسقوط ليس شيئًا مباغتًا

(١) الرواية: ص٩.

(٢) الرواية: ص١١.

ولن ينتهي مباشرة كذلك، سيستمر؛ لقد علم – فقط – اللحظة التي بدأ فيها وهي لحظة وفاة أمه، ولكنه متأكد من استمرار مسلسل السقوط. إنه يرى العالم من حوله غريبًا وبعيدًا، لا يستطيع الاندماج فيه أو معه، وستستمر هذه الغربة ولن يتوقف الابتعاد، ومن الجلي أن طرح "إبراهيم" لرؤيته في بداية الرواية أنه يقصد الإخبار بتقطع كل الوشائج والروابط التي تصله بهذا المجتمع.

وتتضافر البنيات الدلالية في توصيل رؤية "إبراهيم" للعالم، حين يصور لنا أمنياته وأحلامه وكوابيسه جميعها في بوتقة واحدة لا تنفصل، ليؤكد على غربته وسيطرة أفكاره عليه بعيدًا عن المجتمع "**ربما فعلت ذلك انصياعًا لأمنية دفينة في أن يغيب عني رغم حبي الشديد له، لقد لاح لي الأمر في مناماتي، فالأحلام انعكاس لما يكتنز في آبارنا السرية، مما يجب على الآخرين عدم معرفته**"[1]، إنه يسعى سعيًا حثيثًا إلى الانعزال عن المجتمع وعن كل ما يحيط به، ويؤكد ذلك عبر سياق دال متماسك، حين يقرر رغبته في غياب أبيه عنه كحلم في بئر ذاته العميقة، لتتبادل الغربة الدور مع العالم، وتنتصر رغبته الداخلية في الانعزال بعد أن لمس الراحة في البعد عن هذا العالم القاسي.

ويعلن "إبراهيم الوراق" في بداية عرضه لرؤية العالم وتصوره لما هو عليه عن مصادر رؤيته وأساس حكمه، فيقول: "**أرى العالم عبر نافذتين الأولى وفرها لي العدد الكبير من كتب قرأتها في كشك الوراق بعد أن صار ملكًا لي إثر موت والدي، والثانية الإنترنت الذي مع مرور الأيام صرت خبيرًا**

(١) الرواية: ص١٢.

به إلى درجة أن بإمكاني اختراق أي حساب إلكتروني. عالم موازٍ للعالم الذي نعيش فيه، بل إنه سيصبح ذات يوم عالمنا الوحيد، والذي سنتحول فيه إلى كائنات رقمية توجهنا كما الأغنام في المرعى أيادٍ لا نعرف لمن تعود"[(١)].

يتضافر الوعي الآني أو القائم مع الوعي الممكن عند "إبراهيم" في الفقرة السابقة لتأكيد صحة رؤيته للعالم على هذا القدر من الانحطاط والدناءة، والقبح كذلك، لأن مصادره التي شكلت هذه الرؤية موثوق بها - إنهما نافذتان لا نافذة واحدة، ضمنتا له كمًا هائلاً من الخبرات والمعارف تمكن بعدها من إصدار أحكامه وبلورة رؤيته، وأهّله ذلك أيضًا عبر الوعي الممكن أن يستشرف المستقبل ويتنبأ بشكل العالم آنذاك، فالمستقبل من وجهة نظره سيكون لعالم الإنترنت وسنصبح فيه أجمعين كعبيد نساق، ونعاج تقاد، من خلال أفراد يحكمون العالم ولا نعرفهم.

حملت شخصية " إبراهيم" منظورًا خاصًا لرؤية العالم، رؤية متماسكة من خلال فهم وتفسير بنياته الدلالية التي قدمته، وهو ما "يميز منظورها عن منظورات الشخصيات المشتركة في الحدث، بمعنى أن يصبح هذا المنظور معبرًا عن موقف أيديولوجي نابع من داخل كيان الشخصية وعاكس لرؤيتها وفلسفتها"[(٢)]، إن "إبراهيم" يرى ما يحدث أمامه فيحيله بوعي إلى جزء من مفهومه الشامل للعالم، بحيث يعضد بهذه المواقف جميعها هذه الرؤية النهائية التي يريد لها الانتشار **"تفحصت سقف الغرفة، لا طبقة طلاء يمكن أن تسقط مجددًا رغم ما فيه من رطوبة وعفن كثيرين ... العفن صراخ الجدران**

(١) الرواية: ص١٣.

(٢) سيزا قاسم: بناء الرواية، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٤، ص١٣٥.

واستغاثتها، فاحموا البيت لئلا تقع الكارثة"[1]، يربط البطل في هذه البنية الدلالية بين شكل العفن المحدود في سقف غرفته بنظرته الشاملة للمجتمع الذي يرى السوس ينخر في عظامه، والعفن يسري في جوانبه، ويجب على كل محب لوطنه أن يتنبه لهذا الخلل، ويعالج هذا الفساد في البيت / الوطن كي لا يفيقوا ذات يوم وقد انهار على رؤوسهم جميعًا، إن عملية التفسير التي تناول بها "إبراهيم" شكل العفن في سقف بيته تتوافق مع رؤيته للعالم من حوله، وتشخيص صحيح لمرض مجتمعه، وبيان لهذه الأمراض والعلل التي قد تعجل بانهياره.

ومرة أخرى، يؤكد إبراهيم رؤيته الخاصة عبر البنى الدلالية المختلفة التي يؤصل من خلالها ثبات رؤيته للعالم، فهي في اليقظة كما هي في المنام **"كنت مصلوبًا على خشبة من خشب الفزاعات التي اعتاد المزارعون أن ينصبوها في الحقول لتطرد الطيور، لكنها حطت على رأسي؛ طيور سوداء ليست غربانًا – إنها غريبة، بمناقير معقوفة وعيون ضاحكة بشماتة تنقر أنفي وعيني من دون أي ألم"**[2]، يؤكد "إبراهيم" بتقديم حلمه السابق على استمرار تغير المجتمع من حوله وانتشار الجشع وسيطرة الطمع على أفراده، فقد حولوا كل شيء فيه إلى سلعة تباع وتشترى، ولا يقيمون وزنًا لثقافة أو لمعرفة. لقد استولوا على دكانه الذي يعد رمزًا للعلم والثقافة ليقيموا بدلاً منه محلاً للهواتف المحمولة، إنهم أشد شؤمًا وخطرًا على العالم من الغربان السوداء، لأن سوادهم في قلوبهم وأفعالهم أشد قتامة، إنهم يضحكون على

(١) الرواية: ص٢٥.

(٢) الرواية: ص٢٦.

جثث ضحاياهم ولا يستطيع أحد النجاة منهم، وعلى العالم أن يعيد النظر في وجود أمثالهم، وإلا فإن الخطر المحدق بالعالم لن يفلت من براثنه أحد.

وعبر الوعي الممكن يجتاح الأسى نفس "إبراهيم" ليؤكد على أن العالم على حافة الهاوية، فقد تغير كل شيء وأصبح الوضع مأساويًا **"لكن الأمر تغير، كل شيء تغير، البلاد؛ العباد حتى الهواء تغير، فالعالم على مقربة من أن يرقمن، حتى الإنسان. ليضمن عددٌ ممن لا نراهم أن يسير الجميع في طريق واحدة اختطوها لنا"**(١)، يستشرف "إبراهيم" ما هو آت ليؤصل رؤيته المستقبلية لمصير العالم الذي ينتظره، لقد وظّف البطل وعيه الممكن ليصدر حكمه هذا، إن المعرفة إذا هُمشت، وانحطت قيمة الثقافة إلى القاع، وتنحى الكتاب إلى الجوانب – مع السيطرة المحكمة للإنترنت على عقول الناس، وأصبحت الرقمنة شغلهم الشاغل؛ فإن كل هذا نذير هلاك للمجتمع كله، خاصة مع سيطرة فئة محدودة على باقي البشر من خلال هذه الأدوات، وعلى جميع الحكومات والشعوب تدارك هذا الأمر، وتعيد تقيم الموقف بنظرة ثاقبة.

إن رؤية "إبراهيم" للعالم فيها توازن بين الوعي اللحظي والوعي القادم، إنه لا يصدر حكمه إلا بعد أن يسوق له من الحجج والبراهين ما يؤيد به رؤيته وتصوره. فمن المسببات القوية لرؤيته السوداوية عن العالم شعوره بالتهميش في محيطه، فلا أحد يقيم له وزنًا ولا يهتم به، حتى الحي الذي يقطنه مختلف عن بقية أحياء العاصمة، بل يكاد يكون هذا في عالم وبقية الأحياء في عالم آخر **"غادرت وسط البلد، حيث الانتقال المفاجئ من عالم**

(١) الرواية: ص٣١.

إلى آخر، وحيث كل شيء مختلف كأنهما مكانين ألصقا عنوة ببعضهما؛ فالشوارع نظيفة، والبنايات فخمة شيد كثير منها من الحجر، ووجوه المارة حولي، والسيارات فارهة والمطاعم فخمة ذات واجهة زجاجية أنيقة، كل شيء لا يشير إلى الشق الآخر من عمان، حتى الأشجار خضراء وليست كالحة"(١)، ستتكرر مثل هذه البنى الدلالية كثيرًا على لسان "إبراهيم"، سيقدمها أكثر من مرة لتكرار مشاهدته لهذه الازدواجية. ليدلل على واقع التهميش الذي يعيشه هو وأمثاله في وطنهم، إنهم يرون كل شيء في البلاد منقسمًا إلى جزءين: جزء جميل ناضر؛ وآخر كالح مغبر. وهو ومعه المهمشون قد اختصوا بكل ما هو قبيح ومتدني في معيشتهم وملابسهم ومركبهم ومأكلهم. كل ما في البيئة من حول "إبراهيم" يبرهن أنه مواطن من الدرجة الثانية في بلده، وأن غيرهم يتمتعون بخيرات الوطن ويرمون لهم الفتات.

أوصل هذا الشعور بالدونية والتهميش "إبراهيم" إلى حقيقة ترسخت في وجدانه، فحين فقد بيته وطرده المالك منه بعد تأخره في دفع المستحقات، تملكه شعور بفقد كل شيء في الوطن – وليس بيته فقط **"في ذلك اليوم صرت بلا بيت، تمامًا مثل عصفور هدمت الريح عشه واستفردت به في العراء ... إذ كنت كمن يمشي عاريًا غير قادر على مداراة عورتي، فتذكرت ما قاله أبي بعد عام من وفاة امي: أحس أني في خلاء كثير البرد"**(٢)، يقدم "إبراهيم" عبر وعيه القائم تحليلاً لشعوره بالغربة في المجتمع، ولماذا يحس

(١) الرواية: ص٣٤.

(٢) الرواية: ص١٦٥.

بأنه ليس مربوطًا بشيء في هذا العالم، لأن العالم لم يمنحه شيئًا بل أخذ منه كل شيء، سلب منه العالم أمنه وحياته ومأواه، لا يعبأ المجتمع بالمهمشين أمثال "إبراهيم"، حتى لو ماتوا جوعًا او بردًا او كمدًا.

ويؤكد "إبراهيم" بمرارة هذا المعنى ثانية من خلال بنية دالة أخرى **"متى يصير القلب بيتًا؟ حينما يغفل الوطن عنا منشغلاً بشعارات السياسة، وسقوط الساسة الطوعي في حضرة الخطيئة، حينما تقسو السماء وتفتح أبواب الصقيع على مصراعيها فتبتكر معنى جديدًا للعراء: قلبك بيتك"**[1]، يتملك اليأس من "إبراهيم" فرؤيته الواعية (القائمة والممكنة) للعالم تؤكد حلول كارثة ونزول مصيبة، لا مناص ولا سبيل من تفادي ذلك. لقد حاول أن يوضح الأمر ولكن أحدًا لم يستمع له، إنهم يعدونه لا شيء بل لا يرونه من الأساس.

إن محاولته عدل كفة الميزان قد ذهبت سدى، وصوته المبحوح من التحذير قد ذهب أدراج الرياح **"إنها الليلة الأولى يا إبراهيم، كم مصباحًا يلزمني لأحمله معي وانا أسير في شوارع هذه المدينة التي تتخلى عن مريديها بكل هذه السرعة؟ كم خطوة ستوصلني إلى قرية ما عادت قرية؟ وما تبقى لي فيها أحد أطرق بابه"**[2]، لا فائدة في نظر "إبراهيم" مما يقول، ولا يرى أثرًا أمامه يترتب على تحذيراته، إن العالم يسير نحو عبودية جديدة لا مكان فيها للعلم أو الثقافة، ستسيطر رأسمالية لا تعترف إلا بالمال وكل ما عداه لا قيمة له ولا وزن. لقد صار العالم مكشوفًا بشكل فاضح **"تلاشت**

(١) الرواية: ص١٦٦.

(٢) الرواية: ص١٧٦.

الأسرار، وما عدنا قادرين على أن نداري شيئًا، نعم العالم أصبح قرية واحدة لا أسرار فيها، وسيتحول كل شيء إلى إلكتروني سطحي، تسهل السيطرة عليه، عبودية بشكل جديد؛ أنيق ولكنه مرعب من الداخل"[1]، لقد وصل "إبراهيم" في بيان رؤيته إلى آخرها، تضافرت البنى الدلالية المختلفة مع عمليتي الفهم والتفسير من خلال وعيه للوصول إلى نتيجة مفادها (لا فائدة)، لا أمل من وراء هذا العالم الذي ينحدر إلى عبودية وانكسار جديدين، ستتحكم القلة في الكثرة، وسيعم الظلم والفساد أكثر فأكثر، ولا مكان بعد اليوم لثقافة أو معرفة، إنه يرى العالم سيئًا وسيصبح أسوأ، فهل يستجيب أحد؟

لن يستجيب أحد لـ "إبراهيم" المهذب المسالم، وهنا يبرز الصوت الثاني المكمل لهذه الرؤية، الصوت الذي من خلاله يقدم السرد حلّه لتغيير هذا العالم الذي صمّ آذانه عن صوت الحكمة والتروي والعقل. ويتصارع "إبراهيم" الواعي مع الصوت الباطني الذي يمثل الفعل المضاد لموقفه، ليصبح "تعدد الأصوات مُعبرًا عن صراع أبدي أزلي متغير دومًا بين النزوع إلى التوحيد، والنزوع المضاد الذي يحافظ على التنوع والاختلاف"[2]، ويجب أن نعرف أن ثمة توافق في رؤية العالم بين "إبراهيم" والصوت الآخر، ويأتي الاختلاف في موقفهما من الفعل المناسب لتغيير هذه الأوضاع البائسة في المجتمع، وعدل الكفات المائلة. ويعد تقديم السارد هذه الرؤية المتكاملة

---

(١) الرواية: ص٢٩٨.

(٢) تزفيتان تودروف: ميخائيل باختين المبدأ الحواري، ت (فوزي صالح)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٦، ص١٧.

للعالم من خلال صوتين مختلفين أمرًا مهمًا، لأن "كل حقيقة جزئية لا تأخذ معناها الصحيح إلا إذا وضعت في المجموع، كما أن المجموع لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق المضي قُدمًا في استكشاف الظواهر الجزئية"(١).

ومن أول ظهور للصوت الباطني؛ يبدأ في ازدراء أسلوب "إبراهيم" الواعي وينعته بالجبان، إذ لا يرى منهجه هو الطريق الأمثل للتغيير **"لكنه أتى هذه المرة قويًا وواضحًا: ماذا ستقول لهم إن خرجت يا إبراهيم! سأتلاشى بمجرد أن تتجاوز هذا الباب. قلت لك منذ زمن حينما لم أجدك تصنع ما أقول؛ لا بد لي أن أفعل ما لم تفعله أنت أيها الجبان"**(٢)، يبدأ السارد تحذيره مع أول ظهور للصوت الآخر، إذ يشير إلى أن عدم الاستجابة لصوت الحكمة وبدء التغيير المنشود الذي يحقق العدالة والمساواة؛ سيتردى الوضع أكثر وتظهر قوى عنيفة في الظهور، وسيتوارى صوت العقل أمام صوت الفعل، سوف يفرض التغيير نفسه.

إن قطاعًا ليس بالهين بدأ يرى صوت العقل والتروي ضربًا من الخبل، وانتظارًا لما لن يأتي أبدًا، كما أن المنادين بحتمية تغيير هذا المجتمع ونقله إلى وضع أفضل إذا لم يروا استجابة لندائهم؛ سيصيبهم اليأس والإحباط؛ وهو المدخل الرئيس لولادة العنف الساعي للتغيير، وستندلع شرارة ثورة تحرق الخضر واليابس، وتظهر سلوكيات تمثل شرًا مستطيرًا على أمن المجتمع واستقراره.

---

(١) جان بياجيه: البنيوية، ت (عارف منيمة – بشير أوبري)، ط٢، منشورات عويدات، بيروت ١٩٨٢، ص١٢.

(٢) الرواية: ص١٦.

لن يواري الصوت الباطني نواياه، ولن يتحفظ في إبداء رؤيته الأمثل لتغيير العالم، وتنبثق رؤيته العنيفة هذه من وجهة نظره في العالم الذي رآه قد وصل إلى المرحلة الأخيرة من العفن والفساد، عالم يسحق أبناءه، فالحل في رؤيته يكون عن طريق الدم والعنف **"كان عليك أن تقتل من تسبب بالذي أنت فيه الآن، ابتداء من زمن القرية وانتهاء بزمن المدينة. الذين آذوك كُثر وأصواتهم ما تزال عالقة حتى في شعر أذنيك، لكنك أجبن من أن تفعلها، لذا سأقتلهم بطريقة وحشية"**(١)، تدل هذه البنية السابقة على رؤية محددة للعالم يمتلكها الصوت الباطني، إن أشخاص هذا المجتمع قد آذوا "إبراهيم" وقوضوا أحلامه وبددوها، وفي الوعي القائم لا يستطيع "إبراهيم" أبدًا أن يقتص منهم أو يعيد حقه المسلوب، لقد فقد محله وبيته وكتبه. وهنا تأتي الرؤية الثانية المناوئة للعجز والضعف الذي يغرق فيه "إبراهيم".

تمثل الرؤية الثانية اتجاهًا يُضاد تربية "إبراهيم" وطبيعة شخصيته، ولكن الصوت الباطني يصفع كل فترة برؤيته وجه "إبراهيم"، لأن لها أنصارًا ومؤيدين على أرض الواقع، إذ لا يمكن فصل وعي الفرد – الشخصية عن وعي وإدراك الجماعة في مجتمع ما، وبهذه الرؤية المتعمقة للمجتمع والعالم ينضج النص الأدبي، فأي إبداع "لا يشتمل على نظرة شخصيات العمل الأدبي للعالم لا يمكن أن يكون تامًا، لأن رؤية العالم هي تجربة عميقة

(١) الرواية: ص٢٧.

يعيشها الفرد، وهي التي تميز ماهيته الداخلية، وهي في الوقت ذاته تعكس مسائل العصر الهامة عكسًا بليغًا"[1].

وسنرى تكرارًا كثيرًا لرؤية الصوت الباطني، وتبريرًا كثيرًا كذلك في محاولة منه لإقناع "إبراهيم"، وعلى امتداد الرواية نجد البنى الدالة تؤصل رؤية الصوت الآخر للعالم **"ما الذي يمكنك قوله الآن؟ عد بذاكرتك أيها الوراق إلى عدالة أرسطو التي رأى أنها علاقة الفراد بالمؤسسات، وإلى فضيلته التي رآها علاقة الفراد ببعضهم، ستكتشف أن لا عدالة ولا فضيلة فيما حدث لهذه السيدة.**

ـ لكن هذا سلوك فردي.

ـ الفرد جزء من الكل"[2]، يتفق "إبراهيم" مع الصوت الباطني في أن ما يحدث في المجتمع ليس سلوكًا فرديًا من بعض أفراد المجتمع، بل هو سلوك عام وديدن جمعي لأفراد المجتمع من حوله، لقد ضربهم الفساد في مقتل، وتشربت مسامهم الجشع والطمع، وصار الكل يبحث عن ملذاته الخاصة؛ ومصلحته الفردية بأنانية مفرطة، وفي ذات الوقت يتغنون بالوطن وخدمة الشعب، ويظهرون حرصهم المزيف على الطبقة الفقيرة وهم يدهسونها بأحذيتهم.

تؤكد البنى الدلالية التي يقدمها الصوت الباطني لـ "إبراهيم" هذه الرؤية ليحثه على الفعل؛ بعد أن يؤمن بهذه القناعات **"أرأيت كيف كنت كالأبله**

---

(١) جورج لوكاتش: دراسات في الواقعية الاشتراكية، ت (نايف بلوز)، ط٣، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٥، ص٥٢.

(٢) الرواية: ص٢٩.

وأنت تطأ جزءًا من هذه المدينة للمرة الأولى؟ تقنع نفسك جراء الوهم الذي حشرته الكتب في رأسك بأن ما تحس به ليس حقدًا طبقيًا، كتب علمتك كيف تبقى فقيرًا ومنعزلاً، بينما الحياة تجري بشكل آخر خارج كشكك القذر"(١)، تتضام هذه البنية الدالة مع مستوى من الوعي القائم لتفسر المشاهد التي يراها "إبراهيم" في الجزء الغني من المدينة، هذا الجزء الذي يعيش فيه علية القوم ويقارنه بالحي الذي تتعفن فيه طبقة المهمشين.

هذا الوضع المرزي كما رآه "إبراهيم" مدّ الصوت الباطني بقوة جعلته يصرخ في "إبراهيم" ناعيًا حالة الخنوع والخضوع التي يراها خورًا وضعفًا من جانبه، لا بد من صرخة تنطلق فتقوض أركان هذا الفساد وتقيم العدالة بين أفراد المجتمع. وولّد هذا التضاد بين رؤية "إبراهيم" المسالمة ورؤية الصوت الباطني هزة عنيفة في نفس "إبراهيم"، جعلت منه نسخة لا يحبها **"نسخة خائفة مهزوزة، ترى كل ما حولها على نحو مريب؛ فخسرت نفسي"**(٢)، وكانت هذه النسخة المترددة الخائفة هي البوابة التي ولج منها الصوت الباطني ليسيطر تمامًا على "إبراهيم"، ويفرض رؤيته عليه ومن ثم طريقة مواجهة العالم وتغييره.

لقد بدأت رؤية الصوت الباطني في الظهور والعلو؛ لأنه أدرك أن رؤيته ورؤية "إبراهيم" متقاطعتان ولا تضاد بينهما **"أنت تؤمن بي ولكن خوفك يدفعك للقفز عن الحقيقة، بعض الناس يمتدحون تحليقهم لأنهم لم**

---

(١) الرواية: ص٣٥.

(٢) الرواية: ص٤١.

يستطيعوا الوقوف بوجه ما يحدث حولهم"[1]، استشرف الصوت الباطني من خلال الوعي الممكن أن "إبراهيم" قد بدأ يلين لرؤيته، ويتقبل منطقه، ويتجاوب معه فأكد له أن لا تعارض بين رؤيتيهما، فهدفهما واحد، إنهما يسعيان للتغيير ولا شيء غيره، فليتغير العالم بطريقة الصوت الباطني إذاً لأنها تناسب هذا العالم القاسي، ويؤكد حكمه هذا لـ "إبراهيم" في ذات الصفحة **"ستأتي اللحظة التي تنصاع لي فيها، وتلقي بكل دفاعاتك الرديئة"**.

ويلجأ الصوت الباطني للوعي القائم، ليؤكد من خلاله لـ "إبراهيم" اتحاد رؤيتهما تجاه العالم، فينقل له مشاهدته للعالم وما يحدث له، ومفسرًا حالة التيه والحيرة التي يتخبط فيها العالم (وهي نفس رؤية إبراهيم)، إذ يؤكد له وقوع **"العالم الآن في حيرة كبرى، فالذين نادوا سابقًا بالعدالة فشلوا لأنهم كانوا آباء أكثر من اللازم، والذين جعلوا العالم على نحو حر صنعوا أباطرة جددًا وأشعلوا الحروب؛ واحتكروا كل شيء. والناس يموتون بين شقي رحى كونية"**[2]، تتجمع البنى الدلالية المختلفة سواء على لسان "إبراهيم" أو الصوت الآخر لتؤكد رؤية واحدة للعالم والمجتمع، فالعالم يسير نحو الهاوية كما قرر "إبراهيم" سلفًا؛ وكما يقرر الآن الصوت الباطني، وسواء أجاءت هذه البنى الدلالية عبر الوعي القائم أو الممكن فإن الرؤية واحدة لا مفارقة فيها، لتظل نقطة الخلاف بين الصوتين هي كيفية إنقاذ العالم، أو كيفية إضاءة شمعة وسط الظلام هل ستكون بطريقة "إبراهيم" أم بأسلوب الصوت الآخر؟

---

(١) الرواية: ص٤٨.

(٢) الرواية: ص٥٣.

إن إبراز هذين الصوتين لرؤيتهما للعالم ببيان اتجاه كل منهما للتغير؛ يعد انتقالاً مطلوبًا من سرد تهيمن عليه وجهة نظر وتتحكم فيه، إلى "بؤر تتعايش فيها العديد من الرؤى والمنظورات الأيدولوجية والحياتية، التي تمتلك حقها في الوجود والصراع بمعزل عن المنظور الأحادي المهيمن للبطل"(١). وتنضح رواية "دفاتر الوراق" بهذا التوازن بين صوتين سرديين لكل منهما اتجاهه وطريقه، وإن كان الأمر في النهاية تبدو فيه الغلبة للصوت الباطني بعد سيطرة اليأس على "إبراهيم" وإيمانه بأن طريقته لن تجدي نفعًا، ومعرفته بأن ضعفه وعجزه قد أسلماه إلى حالة من التهميش المجتمعي الذي يقتل روحه ويمحق ذاته **"أنت تنفذ إلى الحياة من أضعف نقاطها، الحب ضعف؛ لهذا لن أرضخ له لئلا تتراجع قوتي العظيمة"**(٢)، قدّم الصوت الباطني لـ "إبراهيم" هذه الفلسفة ليقنعه بتجنيب حالة الضعف التي سببت له كل هذا الأذى، فيؤكد له أن كل حالات الضعف مرفوضة بما فيها الحب، إذ لا يؤمن به إلا الضعفاء، ويرى عبر وعيه الممكن أن استسلامه لمشاعر الحب سيضعف من رغبته في التغيير، وسيحد من قوته في المستقبل.

ويمكننا أن نرصد في طول الرواية وعرضها الكثير من المواضع التي تُقدم البنى الدالة على رؤية الصوت الباطني واتجاهه في التغيير، فمن جهة لإقناع البطل الواعي "إبراهيم" واستمالته للفعل، ومن جهة أخرى للتأكيد على انتشار هذا المنطق وهذه الرؤية في المجتمع وأنّ لها أنصارًا ومؤيدين. ففي

(١) فاضل تامر: المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي، دار المدى، دمشق ٢٠٠٠، ص ٣٠ – ٣١.

(٢) الرواية: ص١٠٤.

صفحة (١٢٨) يؤكد لـ "إبراهيم" أن فعله العنيف بما فيه من دم وقتل وسرقة إنما هو جرس إنذار ليعلن به العالم عن الفساد وحجم الكارثة التي ستودي به، ويقرر له في صفحة (١٤٦) أنه لا حل أمامه سوى ذلك الطريق لأن الكتب (طريق الوعي والعقل) لن تجدي نفعًا؛ فالعالم على قرن ثورٍ هائج وسيسقط في أي وقت، والعالم يدرك اقتراب اللحظة الحاسمة.

وكانت نتيجة ذلك الإلحاح الدؤوب من الصوت الباطني على "إبراهيم" أن أحرق الكتب وأعلن استسلامه التام لرؤيته **واتجاهه "هرعت إليه وطلبت منه ولاعة مدّها إلي، فأشعلت النار بالكتب وأعدتها غليه، ربت على كتفي ومضى في طريقه متمتمًا بكلمات غير مفهومة لأغنية حزينة. حملت حقيبتي الصغيرة ومضيت ودخان الكتب يتصاعد نحو السماء"**[(١)]، كان إحراق الكتب هو الإعلان الرسمي لانتصار رؤية الصوت الباطني على رؤية "إبراهيم" واتجاهه، أنهى "إبراهيم" بيديه كل قناعاته، ورمز السارد لذلك بحرق الكتب التي هي أيقونة الوعي والثقافة والمعرفة في المجتمع، ولن يتبقى بعد ذلك إلا طريقٌ وعرٌ أمام كل المهمشين والمنبوذين، ممن طحنهم العالم ولم يستمع لهم، هؤلاء الذين لن يجدوا أمامهم طريقًا لإسماع صرختهم إلا بالدم والعنف.

ولكن مع استسلام "إبراهيم" التام لرؤية الصوت الباطني، وتحوله لأداة في يده لفرض رؤيته في تغيير العالم، لا تنعدم – مع ذلك – مقاومة "إبراهيم" بين الفينة والفينة، وهي مفارقة شكلية توحي بتوحد الرؤيتان لا مغايرتهما، إن مقاومة "إبراهيم" الشكلية للصوت الباطني بعد ذلك تنم عن إيمانه نوعًا ما

(١) الرواية: ص١٤٧.

برؤية الصوت الباطني واتجاهه في تغيير العالم، ولعل السارد لم يجعل "إبراهيم" مستسلمًا حتى النهاية رغبة "في محاصرة الحقيقة وكشفها من جوانب متعددة أملاً في أن تكتمل الصورة في النص"(١)، إن تعالي صوت "إبراهيم" أو الصوت الباطني لهو خدمة جليلة تُسدى إلى الحقيقة، وبيان لرؤية متكاملة للعالم تظهر من أكثر من وعي، وأكثر من تفكير، وتصبح جميعها " أصواتًا متضافرة في بنية واحدة، وليس من الضروري أن تكون هذا البنية متناغمة؛ بل لا بد أن تنطوي على تناقضات"(٢).

فمن صور البنى الدلالية التي أبرزت مقاومة "إبراهيم" ومجادلته التي لا تنتهي مع الصوت الاخر، نراه في نهاية الرواية تمامًا صفحة (٣٦٢) من تبادل حواري غاضب بينهما؛ ويعد هذا الحوار هو آخر ما دار بينهما من جدال: **"جاء الصوت غاضبًا، ثم أخذ يصرخ بي: لكن البطولة عمل مكتمل؛ عليك أن تتممه لتنال الوسام. قلت وصدى صوتي يعود إليّ من جدران الجسر؛ والسيارات تمر من تحته مسرعة: صنعت مني لصًا، العالم يمضي في طريق لا طاقة لي في أن أفعل شيئًا حيالها.**

ـــــ لأنك عديم الحيلة وسترى ما يمكن أن أفعل. تلاشى الصوت وأصابني الذعر فلا بد أن أمرًا جللاً سيقوم به"، يصل السارد إلى نهاية المطاف في هذه البنية الحوارية، التي يبين من خلالها عدم انتصار أي من الصوتين على الآخر بشكل قاطع، وإن كان ما قبلها يُظهر غلبة مؤقتة للصوت الباطني. ويعلن

(١) سيزا قاسم: ميرامار والنكتة، مجلة فصول، مجـ ١١ – ٤ع، القاهرة شتاء ١٩٩٢، ص١٤٦.

(٢) المرجع السابق: ص١٤٦.

السارد بهذه النهاية أن الحل في يدّ المجتمع لا في يدّ أفراده متفرقين، وأن الحلول كلها تصبح عديمة الجدوى إذا لم يعرها العالم أهمية، وإذا لم يدرك المجتمع أن هذه الرؤى ستنجيه من هلاك محقق، وكارثة قادمة.

حرص السارد كذلك على توصيل الرؤية المبتغاة حتى آخر صفحة في الرواية، حيث تتحد رؤيتا "إبراهيم" والصوت الباطني بعبقرية سردية، وتترك الباب مفتوحًا لكل الحلول، حين يريان البيت المهجور (رمز الوطن) يُهدم من قِبل السلطات؛ في إشارة واضحة أن العالم والقادة لم يأبهوا بكل هذه التحذيرات ولم يستوعبوا رسائل التنبيه المتكررة، فتهاوى الحلم وذوت الآمال، وسقط الوطن، واندثر الحضن الدافئ في العالم **"انتفخت بطني أكثر من أي وقت مضى، وراحت تكبر وأخذ جلد بطني يتخرق شيئًا فشيئًا؛ إلى أن رأيت طفلاً يخرج منها له ملامحي نفسها، يركض عبر الناس الذين تجمعوا؛ وحبله السري موصول ببطني؛ أخذ يقفز على أكتاف الناس ورؤوسهم إلى أن وصل رأس البلدوزر، وصرخ بصوت مدوٍ تجاوز المدينة: لا تهدموا البيت. لكن المطرقة كانت قد هوت على السقف، فتهاوى وتصاعد منه غبار كثيف ... تلاشى الضجيج وعمّ المدينة صمت غريب"**[1]، يتحد في المشهد السابق الوعي القائم والممكن عند "إبراهيم"، كما تتحد رؤيته هو والصوت الباطني، حين يوضح أن الكارثة قد وقعت، وأن الوطن قد سقط في الهاوية، بعدما أبعد أبناءه وهمشهم، ولكن في ذات الوقت نرى الأمل معقودًا في المستقبل؛ من خلال بصيص نور متمثل في الطفل، حين يكبر جيلٌ مسلح بنور المعرفة

(١) الرواية: ص٣٦٣.

ووعي ثقافي كبير ليعيد بناء ما انهدم، ويمنع الكوارث أن تحيق بوطنه، يدفعه في ذلك رغبة متحضرة في التغيير القائم على الوعي لا العنف.

وهكذا؛ نرى أن رواية "دفاتر الوراق" قد أبرزت رؤية للعالم من خلال صوتين سرديين مختلفين، بينهما اتفاق في هذه الرؤية في الوقت ذاته. ونجحت الرواية في إطار عمليتي الفهم والتفسير وتعاقب البنى الدلالية وتواليها، وتضافر الوعيين القائم والممكن في بيان هذه الرؤية، التي جاءت كجرس إنذار للعالم لينقذ كينونته من الانهدام، وأن الحل في يدّه فقط. وقدمت الرواية هذه الرؤية عبر الشخصية الرئيسة التي اكتوت بنار التهميش الاجتماعي منذ أن كان البطل طفلاً في المدرسة أول سنة له.

ويمكن أن نضيف هنا أن السارد كان واعيًا بمبدأ تعدد الأصوات ودلالته على الرؤية المرادة للعالم، وظهر هذا في عنوان الرواية في البداية "دفاتر الوراق"، حيث جمع الجزء الأول من العنوان (دفاتر) بدلاً من إفرادها؛ وهذا يشير إلى وجود أكثر من صوت سردي داخل الرواية، لكل منها وعيه ورؤيته وتطلعاته.

ثانيًا: القضايا الاجتماعية وإبراز رؤيا العالم:

تتشكل الرؤية الكلية للعالم لفرد ما من خلال تضام مجموعة من آراءه وأفكاره في قضايا عديدة جزئية، فتتجسد هذه الآراء المختلفة في صورة وعي ناضج في هذه القضايا المختلفة، مُشكلة فيما بينها حلقات متشابكة تمثل في مجموعها رؤيته للعالم. ورواية "دفاتر الوراق" تزخر بالعديد من القضايا الاجتماعية التي برزت فيها وجهات نظر الشخصيات الرئيسة والثانوية، وأبرزت هذه القضايا رؤيتهم الجزئية للعالم؛ ثم تضامت هذه العناصر البنائية المختلفة لتُنضج رؤيتهم المتكاملة للعالم.

وتُسمع هذه القضايا الاجتماعية أصوات المهمشين وأنين عذاباتهم، ولن تصبح الرؤى المتعددة – الجزئية "واقعة فردية بل موقفًا جمعيًا ينتمي إلى مجموعة أو طبقة؛ وتبعًا لهذا الاستدلال فإن رؤية العالم هي مجموعة المفاهيم المتكونة على يدّ مجموعة من الناس توجد في بعض طبقات المجتمع"(١). وسوف نعرض أربعة قضايا ظهرت فيها آراء الشخصيات (إبراهيم – ناردا – الصوت الباطني – ليلى)، لنتتبع رؤاهم للعالم في هذه القضية أو تلك، ومن ثم تُعد رؤية كلٍ منهم هي "شرحٌ للعالم وتفسيره، وتطبيق لهذه النظرية على الحياة، ومن الممكن القول بطريقة أبسط أن رؤيتنا للعالم هي رؤية للحياة في هذا العالم"(٢).

---

(١) بول باسكاري: البنيوية التكوينية ولوسيان جولدمان – ضمن كتاب البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، مرجع سابق، ص٤٨.

(٢) ناصر بن صالح الجحيلان: رؤية العالم عبر محيط الشخصية في القصة – دراسة شخصية نجية في قصة الغراب، مرجع سابق، ص٤٨.

١ـ قضية الفقر الفقراء:

لا ينفك وجود الفقر مصاحبًا لوجود الإنسان نفسه، فمنذ أقدم العصور والفقراء موجودون في كل الجماعات البشرية ومختلف الحضارات، ومهما تباينت الثقافات واختلفت البيئات تبقى سمات الفقر بادية على وجه بعض البشر؛ أو متوارية بشكل منمق، لتنبئ عما في قلب الإنسان من غلظة، وحبٍ للذات وأنانية. ويلعب الفقر في ارتباطه بالإنسانية "أدوارًا ترتسم آثارها على القسمات التي يتخذها شكل العالم في أنساقه الاجتماعية والسياسية، ولا يزال الحديث عن الفقر والفقراء قاصرًا عن بلوغ غاية تنأى به عن مسار الإنسان، وتهيئ له أسباب الخلاص من الحرمان"(١).

ولقد قسّم الفقر والغلاء عالمنا إلى قسمين متضادين لا رابط بينهما، كأنهما من كوكبين منفصلين، فجماعة بشرية غنية حدّ التخمة؛ وأخرى مطحونة حدّ الشقاء، لتصبح قضية الفقر والبؤس والمعاناة جراء الغلاء الفاحش "قضية العالم بأسره، التي تترك بصماتها وتعلن عن نفسها في صور شتى من الحرمان المادي والمعنوي، وآثاره المدمرة التي تعاني منها أفراد وجماعات وقطاعات كبيرة من السكان"(٢).

لقد امتلأت نفوس الشخصيات في رواية "دفاتر الوراق" بالقهر والحرمان جراء تهميشهم وإبعادهم، ونقلت إلينا الشخصية الرئيسة "إبراهيم

---

(١) إسماعيل علي سعد: مبادئ علم السياسة – دراسة العلاقة بين علم السياسة والسياسة الاجتماعية، دار المعرفة، الإسكندرية ١٩٩٢، ص٢٤٩.

(٢) محروس خليفة: صناعة الفقر – رؤية نقدية لأيدولوجية الرعاية الاجتماعية، دار المعرفة، الإسكندرية ١٩٨٨، ص١٩.

الوراق" ملامح ومظاهر عديدة لهذه المشاعر عبر وعيه القائم، سواء كانت هذه مشاهداته أو مشاهدات غيره، فقد دفع الفقر أخاه "عاهد" ليدخل تركيا ويمزق جواز سفره، ليصبح لاجئًا سوريًا عله يجد فرصة أفضل في الحياة **"آخر رسالة وصلتني منه قبل أن تنقطع أخباره كانت مليئة بالقهر والوجع، شرح فيها كيف كان شكل إحساسه بلا عمل في حي لا يلتفت إليه أحد، حتى دخن الحشيش بمعية رفاقه المحيطين إلى أن فقد القدرة على الحلم"**(١)، انهارت أحلام أبناء الوطن وهوت، تحطمت هذه الآمال على صخرة الحرمان والفقر، وتهدمت حياة الفقراء بمعول التهميش. وهرب الشباب ليجربوا حظوظهم في بلاد أخرى غير الوطن، ليتجرعوا ثمالة قدح الهوان والفقر، إن رؤية الفقراء ستتجه نحو النقمة على وطن لم يرعهم؛ ولم يمد يدّ العون في وقتٍ كانوا أشد ما يكونون حاجة لهذه المعونة والإغاثة.

وتتضافر عدة بنى دلالية عبر الوعي القائم لـ "إبراهيم الوراق" لينقل من خلالها رؤيته لهذا المجتمع في تعامله مع الفقراء، وكيف ضرب الفقر أطنابه في عموم المجتمع حتى طال عائلته؛ فأمه كانت في سنواتها الأخيرة من حياتها حين ساءت حالتهم؛ قد **"جلست إلى بسطة خشبية تبيع حشائش لا يأكلها إلا فقراء هذه البلاد. لقد ضاق الحال وصار مزريًا شبيهًا بطرقات وشوارع وشكل بيوت جبل الجوفة"**(٢)، لا توجد رحمة لدى المجتمع بالفقراء، كانت أمه تعاني مرض السرطان؛ ومع ذلك كانت تكافح وتقاوم الألم والوجع لتنزل وتبيع هذه الخضروات للفقراء أمثالها، كي تجمع الفتات

(١) الرواية: ص١٢.

(٢) الرواية: ص١١.

وتعول أسرتها. كل هذه المشاهدات استقرت في نفس "إبراهيم" بعدما عايشه لحظة بلحظة، واختلط بوعيه ألم القهر وشعور الحرمان.

ويصطدم "إبراهيم" بما هو أشد منه حين يرى جارته (أنيسة) تأكل من حاوية القمامة، وتأخذ منها أرغفة الخبز وهي **"تتلفت حولها ... مزقت كيس القمامة وانتقت منه حبات طماطم، ثم فتحت كيسًا آخر واستصلحت منه بعض الطعام. نظرت حولها ووجها ممتلئ بالحزن وقد أجهشت بالبكاء، مسحت عيناها بكم ثوبها ... كانت في عينها نظرات انكسار عندما وجدتني أنظر لما في يديها: ما تبقى لي إلا هذا الحل يا ولدي"**[1]، ارتسمت في البنية السابقة صورة موجعة لحال الفقراء والمهمشين في البلاد، حين يتناساهم المسؤولون ويتجاهلونهم، فيعانون الشقاء في صمت دون شكوى، لقد رفض مدير هيئة التنمية الاجتماعية طلب (أنيسة) بصرف راتب شهري لها كمعونة، وهو المسؤول الفاسد المرتشي الذي تكاد دماء وجهه أن تنضح صحة وتنعمًا، بينما (أنيسة) وغيرها من الفقراء لا يجدون ما يسدون به رمقهم.

ويقترب "إبراهيم" من تشكيل رؤيته للعالم في هذه القضية من خلال وعيه الممكن، عندما يجد فئات كثيرة تأن وتتوجع، ففي صفحة (٣٤) يركب مع سائق التاكسي الذي يؤكد له أن الحال لو استمر هكذا سيجنّون جميعًا **"انحنى نحو المقود ينظر إلى الأمام بتركيز زائد: يبدو أن مستشفيات المجانين لن تتسع لنا إذا استمر الوضع هكذا"**، لن يصمد المهمشون والفقراء طويلاً أمام هذا الحرمان والغلاء الفاحش، سيطالهم الانكسار لا محالة. وهو ما حدث لصاحب المطعم الذي كان "إبراهيم يشتري منه، فقد أخذ يشتكي لـ

(١) الرواية: ص٢٨.

"إبراهيم" دون سابق معرفة بينهما **"أنا لا أعرفك، وأنت كذلك؛ ولا أدري لماذا تخلّق كل هذا الكلام بيننا، لكن كل شيء حولي مثير للإحباط والنكد، أقضي نهاري في هذا المطعم الذي بالكاد أجمع منه أجرته ويتبقى لي القليل لأنفق على عائلتي"**(١). إن الرؤية التي بدأت تتشكل عند "إبراهيم" لهذا العالم أن الفقراء في هذا المجتمع يزدادون فقرًا وحرمانًا كل يوم، إما لوجود بطالة، أو لعدم كفاية العائد من العمل مع أنه يستنزف قواهم دون جدوى، وكذلك لعدم وجود رعاية للكبار والمرضى، وقبل كل هذا وبعده الغلاء الذي تتصاعد وتيرته.

إن البنى الدلالية المتعاقبة في هذه القضية لتؤكد من خلال تشريحها بروية وفهم على هذه الرؤية المتشكلة، مثل: صفحة (٩٦) حين تؤكد الشخصية "ناردا" أنهم مثل بقية السكان لا يأكلون اللحم، وإن أكلوه ففي المناسبات. وأيضًا صفحتي (١٤٢ – ١٤٣) عندما نرى صاحب البيت يطرد "إبراهيم" من المنزل لأنه تأخر في سداد مستحقات الإيجار، بل وأحضر له بلطجية وهدده، ثم أخرجه عنوة هو وما تبقى من أثاث ومتاع. وفي صفحة (١٩٠) نجد صاحب مطعم آخر يشكو مرّ الشكوى لـ "إبراهيم" من الغلاء الذي بات يحطم حياته وجعله مشوش الفكر، متوتر الأعصاب على الدوام، وأخيرًا صفحة (٢٢٧) حين يؤكد "إبراهيم" وجود رائحة للفقر لأن أباه أكد له أن هذه ملابس الفقراء ولها رائحة مميزة.

كل هذه المشاهدات الواعية من "إبراهيم" وغيره من الشخصيات عبّرت عن فجوة ضخمة وملموسة بين طبقات المجتمع، فهم فئة مهمشة يلازمهم

(١) الرواية: ص ص ١٣٥- ١٣٦.

الحرمان ويفتقدون إلى أدنى مقومات الحاجات الأساسية، ويرون فئة أخرى تتمتع بالثروة وتستحوذ على مقدرات الوطن وخيراته؛ وتهيمن على إدارته "وتحرص على توجيه الموارد لتحقيق مصالحها، ومن بين هذه المصالح الحفاظ على مكاسب الثروة والغنى من جانب الطبقة المهيمنة، والحيلولة دون انتقالها للفقراء"(١)، يراهم "إبراهيم" في كل خطوة يخطوها في عالمهم الذي يبدو كأنه عالم آخر غير الذي يعيش فيه الفقراء والمهمشون.

وينقل إلينا إبراهيم وصفًا عبر الوعي القائم لتجمع من تجمعات الأثرياء، فيقول: "**رأيت رجالاً بملابس أنيقة يجلسون إلى الطاولات، ونساء بلباس صيفي أعلن عن أنوثتهن الصارخة، ثمة طاولة يجلس إليها ثلاثة رجال وامرأتان يشربون شيئًا عرفت فيما بعد أنه نبيذ أبيض ... كان الرجل الذي يجلس عند رأس الطاولة يتحدث بشيء من التوتر عن عمليات فساد أرهقت البلاد مؤخرًا، يلوم جهات كثيرة، ويرى أن خطوات جادة يجب أن تتخذ لتزول هكذا أزمة، تحدث عن الطبقة الوسطى وتلاشيها**"(٢)، إن هذا الرجل المتحدث - هو وغيره – سبب رئيس من أسباب تآكل الطبقة الوسطى في نظر "إبراهيم"، إنهم يتشدقون بالعدالة الاجتماعية ولا يحققونها، ويتغنون بوقوفهم جانب الفقير وحياتهم أبعد ما تكون عن الإحساس بالفقير ومعاناته.

لذلك يبدأ الصوت الباطني في الاستيقاظ ثانية، ليبث رؤيته بوجوب قتل أمثال هؤلاء والثورة عليهم، والاستعداد لمجابهة هذا الخلل بشكل فعلي

---

(١) إسماعيل صبري عبدالله: مقدمة ترجمة محبوب الحق – ستار الفقر خيار أمام العالم الثالث، ت (أحمد فؤاد بلبع)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٧، ص٤.

(٢) الرواية: ص ص ٧٣ - ٧٤.

لا نظري، وإلا سيُسحق "إبراهيم" وأمثاله. وتتضام بنى دالة على طول الرواية، لتعبر بالوعي الممكن عن رؤية متماسكة للعالم إذا ظل الوضع هكذا، فبعد تغلب الصوت الباطني على "إبراهيم" وتوجيهه له ببدء سرقات البنوك، وقتل المرتشين والفاسدين؛ والمغتصبين، نرى تأييدًا شعبيًا جارفًا للص المقنع "إبراهيم"، لأنه في نظر هذا الطبقات المهمشة المسحوقة يُعد فعلاً متحققًا ضد الطرف الآخر، الذي يظهر وكأنه عالم آخر عبّر عنه "إبراهيم" بقوله: **"عالم ليس لك فيه شيء، وليس له عند إلا ما لا تدري عنه بحيث تنتفخ جيوبهم، ويتسع ثقب جيبك الذي لا يعرف إلا يدك عندما تفر من البرد"**(١).

لذا، كانت الثورة أمرًا حتميًا في رؤية "إبراهيم" والصوت الباطني كذلك، وقد تشكلت رؤيتهم هذه للعالم من خلال الاستشراف المستقبلي، حيث رأوا أن الفقراء سيثورون – أو على الأقل سيفرحون بمن يفعل ما لم يقدروا هم على فعله. لقد صار اللص المقنع بأفعاله رمزًا للخلاص عند الفقراء والمهمشين، ومعادلاً لرغبتهم الدفينة في تحسن أوضاعهم؛ وشماتة أيضًا في الحكومات التي ذاقوا تحت ظل حكمها الذل والحرمان، وصورته الصحف كبطل، ففي صفحة (٢٣٩) رسمت صورته في أذهان الناس **"بثياب بالية، يرتدي قناعًا أحمر فاقع، كتب أعلاه (الشنفرى)، فصارت أيقونة رئيسية لمئات من حسابات المستخدمين الذين يمتدحونه ويمجدونه ويتعاطفون معه، ولكن كيف يمتدح الناس لصًا؟"**

لقد مثّل اللص المقنع المعادل الموضوعي في مخيلة المهمشين، وفئة الفقراء، فهم يرسمون أحلامهم من خلاله، وينتظرون الخروج من بوتقة

(١) الرواية: ص٧٨.

الحرمان بمساعدته، وتزداد رغبتهم المستعرة في عيش حياة كريمة تتحقق فيها أقل الحاجات الإنسانية؛ التي لا يستطيع الفرد الاستغناء عنها، لأن الفقر لا يعني فقط وجود نقص في الدخل، أو الفشل في إشباع الحاجات الأساسية؛ بل هو مصحوب بتفاعلات اجتماعية تجعله مصدرًا "للذل والحرمان والهوان، وفقدان الكرامة، والإحساس بالنقص والدونية والضعف، وسيادة التخلف وبروز المشكلات الاجتماعية الحادة، ويصبح المجتمع هدفًا لمشكلات اجتماعية أكثر حدة"(١).

سنرى في عموم الرواية تمجيدًا من قبل هذه الشرائح المجتمعية لأفعال "إبراهيم" الذي يحركه الصوت الباطني، ليقوم بهذه السرقات ويقتل الفاسدين، الذين هم سبب استمرار حالة التهميش والفقر الذي يعاني منه المجتمع، ففي صفحة (٢٦٩) نرى مجمل الصفات التي أُسبغت على هذا البطل المقنع: فهو صاحب قلب حزين يحس بوجع الفقراء، وأنه يرمي بصرر النقود بالليل في أحياء الفقراء والمهمشين، ولا قصور له ولا سيارات فارهة، إنه من الفقراء ويعيش من أجلهم. أما في صفحة (٢٧٩) تُظهر الرواية أن منصات التواصل تعج بمنشورات تمجده، وتراه كالمبضع الذي يجترح دمامل توجع قلوب الفقراء وأرواحهم، ومنجلاً يحصد شوكًا أمام أقدامهم العارية، وتتضافر هذه البنى الدلالية جميعها مُشكلة استشرافًا بالوعي الممكن، هذا الاستشراف يطلق صرخة مدوية علّ أحدًا يسمعها، ويفهم الساسة والقادة أن عليهم بحث معاناة مجتمعاتهم وحل مشاكلها، ووضع خطط ناجعة

(١) محروس خليفة – إنصاف عوض: مدخل في ممارسة الخدمة الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٢، ص٢١٩.

لاستئصال الورم منها، لأن القادم من خلال هذه الرؤية الاستشرافية سيكون سيئًا، وينذر بسقوط كل شيء.

٢ـ قضية اللقطاء (أولاد الحرام):

أفردت رواية "دفاتر الوراق" مساحة غير قليلة لقضية شائكة لها ظهور فجّ في المجتمع (قضية اللقطاء)، حيث وظفت الشخصية الرئيسة في هذه القضية "ليلى" لتنقل لنا معاناة هذه الشريحة المهمشة والمحتقرة، إذ ينظر إليهم المجتمع كأنهم حشرات لا وزن لها ولا قيمة، ففتحت الرواية الباب على مصراعيه لتظهر انحراف بعض هذه الفئة كرد فعل لما يعيشونه من ذلٍ وهوان. وتبرز الرواية المشكلة الحقيقية المتمثلة في فقدانهم الحنان وشعور الأمن النفسي؛ والاستقرار الاجتماعي، لتؤكد الرواية في تناولها لهذه القضية أنها "وقفت موقفًا وسطًا؛ بحيث لم تهمل الواقع ولم تهمل فكر الكاتب، بل نظرت إلى الواقع من منظور خاص جعل هذا الواقع أكثر شفافية، لأنها حولته إلى واقع أعمق من السطح التسجيلي الظاهري الذي تبدو عليه الحياة؛ وربطته بسند الحقيقة في بعديها الذاتي والموضوعي. كما أنها عبرت عن دلالات أعمق من فكر الكاتب لأنها رسمت هياكل فنية منفتحة دائمًا وقابلة للتأويل."[١].

إن شخصية "ليلى" كرمز لهذه الشريحة الاجتماعية المهمشة؛ قد كوّنت منظورًا للعالم قدمته لنا عبر وعي قائم لحظي، ممتلئًا بالمرارة والانكسار، ولا تنفك تؤكد على مشاعر الذل التهميش والاحتقار التي تحاوطها هي ورفاقها

(١) عبد الرحيم محمد عبد الرحيم: دراسات في الرواية العربية، ط١، دار الحقيقة للإعلام الدولي، القاهرة ١٩٩٠، ص٤.

ممن ابتلاهم الله بهذا الوضع الصعب، وقد تشكلت رؤية للعالم في هذه القضية أبرزتها الرواية من خلال صوت شخصية تنتمي لهذه الطائفة، لتقدم رؤية "تخترق عالم الحجب والأستار، وتستبقي من الحلم ثراء دلاليًا يوحدها مع الغيب، وهي تضرب بجذورها بعيدًا عن رؤية البصر أو رؤية الواقع السطحية؛ حيث واقع الحس والعادة ومنطق العقل، وتتجاوزه فيما هو قائم وراءه في العالم الحقيقي"(١).

تبدأ رؤية "ليلى" في التشكل مع أول سطر في حكاياتها؛ التي كانت بضمير المتكلم (الأنا)، فتحكي بعين الراصد (الوعي القائم) درجات تكون رؤيتها منذ لحظة مغادرتها للملجأ بعد بلوغها سن الشد. فقد طلب منها المسؤولون عن الملجأ المغادرة، ومنحوها نقودًا لا تكفيها لمدة شهر، لتنتقل من عالم لعالم آخر مجهول بالنسبة لها **"خطوة واحدة إلى الأمام ستجعل الملجأ يبتعد إلى الوراء، وتقترب حياة جديدة لا أعرف عنها شيئًا؛ إلا ما كونته المخيلة من الأحاديث مع شقيقات وأشقاء عشت معهم ثمانية عشر عامًا، خطوة واحدة نحو عالم لا عائلة لي فيه ولا أقرباء"**(٢)، إن رؤية "ليلى" عن العالم خارج الملجأ مشوشة وغير مستقرة، فهي تخرج مشبعة ببراءة يخنقها شعور قاتل بأنها عديمة الوالدين من الأساس، ويُعظم السرد على مدار البنى الدلالية الناقلة لرؤية "ليلى" من اضطرابها وقلقها المتزايد لأن العالم الجديد مجهول أمامها.

---

(١) ساندي سالم أوسيف: قضايا النقد والحداثة – دراسة في التجربة النقدية لمجلة (شعر) اللبنانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص٥٠.

(٢) الرواية: ص١٩.

وليت المجتمع تبناها أو قدّم لها رعاية مناسبة يوم مغادرتها الملجأ؛ إذا لهان عليها الأمر، ولكن ما حدث هو العكس لقد تركوها مع غيرها للشارع ولا شيء غيره، ومنذ هذه اللحظة تبدأ مأساة هذه الفئة ومعاناتها، التي أبرزت الرواية شقاءها وشرّحت قضيتهم لتبين القبح المستتر فيها.

وكان من الطبيعي أن تسود حالة من التخبط عند "ليلى" تجاه العالم الذي تخطوه لأول مرة، ولا تستطيع تكوين رؤية محددة وكاملة في البداية عنه، وبخاصة بعد تعرضها للاغتصاب على يدّ المشرفة المسؤولة في الملجأ، وكذلك تعرضها المستمر للتحرش الجنسي من كل من يعلم أنها (لقيطة)، وتعبر عن حالة التيه هذه **"لم أفكر يومها إلى أين سأذهب، قلت في نفسي سأبقى أمشي فحسب، لكنني أصبت بالرعب بعد أن رأيت الشمس تغيب وراء البنايات، وتهيئ المدينة لليل لا أعرف ماذا يخبئ لي ... كنت تائهة وعلى مشارف أن أعود إلى الملجأ، ولكن كيف ذلك وما عدت تلك الطفلة التي يمكن أن يؤوها"**[1]، لا يزال الوعي القائم عند "ليلى" معطلاً، ولا تتمكن من تكوين رؤية متسقة ومحددة للعالم، هذه الرؤية التي من خلالها يستطيع الفرد أن يحيا ويُكيف نفسه مع الواقع المحيط إما قبولاً وإما رفضًا، إن هذا العالم الخارجي كان – وسيظل – سببًا لرعب كبير لهذه الفئة، إذ ينعدم فيه الأمان ولا يشعرون فيه بالاستقرار، وما يحدث هو العكس، ومن هنا نتفهم رغبة "ليلى" في الرجوع للملجأ حيث العالم الذي تعرفه، وكونت رؤية محددة عنه في وعيها، ولكن حتى هذا الحل لن يتحقق أبدًا.

(١) الرواية: ص٦٣.

لقد أمعنت الرواية في التوغل في حياة هؤلاء البائسين من أفراد هذه الطائفة المهمشة، فصورت ما يحدث لهم بعد الخروج من الملجأ دون أي رعاية مجتمعية لهم، فمنهم من امتهن التسول، وآخرون يسرقون، وغيرهم يبيعون مناديل ورقية في إشارات المرور، وبعضهم يبيع جسده من خلال أعمال الدعارة، والباقي يُقدمون على الانتحار، جسدت الرواية كل هذه الصور بسرد قوي محبوك، من خلال تناول شخصيتي (أسماء – ماجدة) بالإضافة لـ "ليلى"، فقد اختصرت "ماجدة" الطريق واشتغلت بالدعارة منذ البداية؛ لتستطيع الصمود والمقاومة في ظل هذا المجتمع القاسي، تحكي "ليلى" عنهما **"لكني وجدت نفسي سجينة مع فتاتين محبطتين، ماجدة وقد استسلمت سريعًا وتحولت إلى عاهرة تمضي ليلها في النوادي الليلية، يا الله كم كانت مسكينة تلك الفتاة، وكم كانت معذبة ... تسهو للحظة وقد تغيرت ملامح وجهها فيستحيل إلى وجه حزين لفتاة لم تصمد طويلاً أمام عالم لم نكن ندري أنه على هذه الشاكلة"**(١)، وتظل "ليلى" تورد البنى الدالة واحدة تلو أخرى لتصف من خلالها معاناة "ماجدة" وتفاصيل حياتها؛ بما يُشكل رويداً رويداً أمامنا رؤية تكتمل ملامحها لهذا العالم الذي لم يرحم "ليلى" ورفيقاتها وأمثالهن من المهمشين، لا لذنب اقترفوه أو خطيئة ارتكبوها.

وكذلك حال "أسماء"، التي بينت الرواية أنها عملت في مطعم وجاهدت كثيرًا لتعيش بشرف وتجعل لنفسها قيمة، ولكنها تتعرض للتحرش المستمر من صاحب المطعم، ونراها تقاومه مدة طويلة، كانت "أسماء" تكابر وتقاوم رغبة في إثبات ذاتها وتمسكًا بعمل شريف يضمن لها حياة مستقرة وكريمة،

(١) الرواية: ص٥٩.

ورأى صاحب المطعم أنه لا حق لها في الحياة بشرف، وكانت النتيجة أن **"هُزمت أسماء أمام التحرش المستمر لصاحب المطعم بها، حينما رفضته استكثر عليها ذلك كونها مجهولة النسب، قال لها: كان عليك أن تكافئيني لأني قبلت أن تعملي لدي. شتمها كثيرًا ثم طردها من العمل ... التقطت سيجارة من علبة ماجدة وأشعلتها، ثم نفخت هواءها بدلال مصطنع: من هذه الليلة سأرافقك يا ماجدة، منذ ذلك اليوم عملت أسماء في الدعارة"**(١)، إن دلالة هذه البنية مع السابقة تبني سياقًا دلاليًا ليصور مدى الإثم الذي يرتكبه المجتمع في حق هذه الفتيات، إنه إثم مريع، وبذا بدأت ملامح العالم تتضح كرؤية عامة لدى "ليلى"، فهو مجتمع لا يرحم، ولا يساعد إلا بمقابل، وغالبًا يكون المقابل هو التفريط في الكرامة والعرض.

إن "ليلى" ترى العالم ينظر إليهن بعين الاستباحة، يستبيح منهن كل شيء لأنهن مجهولات النسب؛ فلا حق لهن إذاً في أي شيء، إن هذه الممارسات الاجتماعية، وتلك النظرة قد جعلت الكثيرات منهن يمضين قدمًا في طريق الانحراف، ليستطعن تحقيق الحد الأدنى من المعيشة الآدمية. فكما قالت "أسماء" في صفحة (٦٣) **"منهم من يمكث بلا عمل، ومنهم من صار متسولاً، ومنهم من تحول إلى لص، قالت لي أسماء ليلتها إنهم أولئك الذين عاقبهم الجميع لأنهم أولاد حرام"**.

قدمت "ليلى" عبر الوعي القائم أكثر من وصف لتقرر معاناة هذه الشريحة المظلومة، وتنقل رؤيتهم للحياة، ونراها تقدم تفسيرًا لرؤيتها من خلال موضوعات واقعية تغلب عليها سمة التهميش والبعد، لأن "المهمش

(١) الرواية: ص٦٠.

يستمد موضوعاته من الانزوائي والعرضي واليومي، والمهمل والمتروك"[1]، إن ما يعلق في ذاكرتها من قراءات قديمة هو ما يُشكل عصب البنية التعبيرية لرؤيتها لهذا العالم الجديد ومكانها فيه، فتعبر عن هذه الرؤية ببعض التشبيهات التي قرأتها قديمًا **"ما أصعب أن يكون الواحد منا كغصن مبتور من شجرة، ما أصعب عيش تلك الأغصان حينما تعزل عن أمهاتها عنوة، فيموت بعضها؛ وبعضها يصير أشجارًا قوية تداري في داخلها يتمها، وتكبر بحصة الفائض من اللحاء"**[2]، إن "ليلى" تستشرف من خلال الوعي الممكن نهايتها في هذا العالم، لتكتمل صورة العالم في عقلها، إن نهايتها هي الموت الحتمي القريب، فهي إنسانة مبتورة الأصول ولا جذور لها ترويها وترعاها، إنها كغصن قطع من أصله فمات جفافًا وليته كان يعرف أمه. وأكدت لها "ماجدة" هذا المعنى في صفحة (٦٤) حين قالت: **"رمونا إلى عالم إن لم تكن لك فيه قبيلة أو عشيرة ستبقى منبوذًا، ولن تكون لك أي قيمة مهما فعلت".**

ومن الواضح في رؤية العالم من وجهة نظر هذه الشريحة المهمشة اجتماعيًا؛ أن رؤيتهم متطابقة، ومهما تعددت الأصوات السردية داخل هذه الفئة فإنها تصب جميعًا في بوتقة واحدة، وقد تعددت الشخصيات الناطقة بهذه الرؤية في أكثر من موضع من الرواية، إذ أطلق لهم السارد العنان ليقدموا رؤاهم كذلك، وفتح باب الحكي على "أصوات الشخصيات فيترك لهم التعبير الخاص بهم، ويقدم لهم منطوقاتهم المختلفة، والمتقاربة

(١) علي شناوة –رحاب خضير عبادي: استطيقا المهمش في فن ما بعد الحداثة، مرجع سابق، ص ١٣.

(٢) الرواية: ص٦٣.

والمتناقضة، وبذلك يكشف النص عن طابع سياسي عميق قوامه حرية النطق والتعبير"[١].

ومن هذه الشخصيات الثانوية التي قابلتها "ليلى" في البيت المهجور "سلام"، كانت "سلام" أكثر الفتيات رغبة في مغادرة الملجأ، والتمتع بالحياة في العالم الخارجي، وكانت البهجة تشع من عينيها، ولكن "ليلى" رأتها بشكل مناقضٍ تمامًا **"إلى أن أشرع الباب فأطل منه وجه متعب لفتاة، تأملتها فعرفت أنها سلام، كيف يحدث لنا ما يحدث! كانت سلام من أكثر نزلاء الملجأ توقًا إلى مغادرته ... عند الباب عانقتني سلام ثم انهارت مرة واحدة، إذ جلست على الأرض تبكي وتشتم الناس والحكومات، ووالديها اللذين كانا سببًا في كل ذلك"**[٢]. ما زالت رؤى كل شخصيات هذه الشريحة المهمشة تتضافر لتبني رؤية واحدة متكاملة، رؤية عن العالم من خلال بنى سردية ذات دلالة واحدة، ومن خلال وعيهم القائم ندرك أن رؤيتهم للعالم تنحصر في زاوية الظلم وغياب العالم عنهم، بدءًا من الوالدين اللذين ألقوا بهم في الشوارع بلا شفقة، ومرورًا بالمجتمع الذي يسحقهم بممارساته وكلامه، ونهاية بالحكومات التي تشرعن كل هذا وتقننه، ولا تني أبدًا عن إضفاء الشرعية الزائفة على هذا الظلم، وبسبب هذا كله تزهق أرواحهم كل لحظة وهم أحياء.

---

(١) يمنى العيد: الراوي الموقع والشكل بحث في السرد الروائي، ط١، مؤسسة البحاث العربية، بيروت ١٩٨٦، ص ص ١١- ١٢.

(٢) الرواية: ص ص ٦٤ - ٦٥.

وتتعدد الأصوات، ولكنها تصب جميعًا في نفس الرؤية وذات التصور، فحينما يلتقي البطل الرئيس "إبراهيم" بـ "ليلى" يكون الناتج رؤية واحدة **"أنا مثلك يا إبراهيم بلا عائلة، لكنك محظوظ فأنت تعرف من هم عائلتك، ولديك الكثير من الذكريات، أما أنا فلا شيء لدي"**(١)، يسترجع "إبراهيم" كلام "ليلى" ليجد توافقًا مع رؤيته عن فساد العالم من حوله، وغرابته كذلك، إنها لا تعرف أن ذكرياته تعذبه، فهي تؤرقه وتنغص معيشته، لا تعرف "ليلى" كذلك أن عائلته قد عانت كثيرًا ولاقت من الشقاء الكثير كذلك، وتتأكد بذلك عند المتلقي الرؤية التي يستهدفها السارد حول العالم عندما تظهر واحدة عند جميع الشخصيات. فلا جدال الآن بأن العالم قاسٍ وظالم، وأنه يسحق كل من فيه، فلا ذكريات مبهجة ولا عائلة، ولا حياة كريمة فوق كل هذا وذاك. هذا التصور عن العالم أكده "إبراهيم" من قبل، وأكدته "ليلى" ومن معها كذلك، وتؤكدها الشخصيتان عندما يلتقيان.

أما الأمر اللافت في رؤية العالم لدى "ليلى" ورفيقاتها؛ هو التأكيد الحثيث من خلال بنى دلالية على معنى أراد السارد ترسيخه في وجدان المجتمع؛ لعل معاملة هؤلاء اللقطاء تتغير للأحسن، هذا المعنى يبدو أن المجتمع يدركه تمامًا ولكنه يتصرف عكسه أيضًا، أن هذه الفئة المظلومة لا ذنب لها، فهم يعاقبون على ذنب لم يقترفوه **"نحن نحمل خطايا آبائنا وأمهاتنا، أبناء حرام في نظر كل من يرانا، كأن في وجوهنا ما يميزنا عن باقي البشر، أوقفني شرطي يوم ارتديت ملابس الرجال وطلب هويتي، اعتقد في البداية أنني ولد، ثم حين نظر في بطاقتي ضحك بعد ان اكتشف أنني بنت،**

(١) الرواية: ص١٨١.

تغير لون وجهه وهو يقرأ رقمي الوطني المميز بالأصفار، سألني من أين أنا؟ وأين أهلي؟ وأجبرني على أن أقول له إنني خريجة ملجأ ... إنني لقيطة بنت حرام ... نحن في عالم يبعث على الخوف"[1]. يرمز الشرطي في البنية السابقة إلى المجتمع من ناحية، وإلى السلطة الحاكم من ناحية أخرى، إن نظرة المجتمع تتغير إلى التجهم والعبوس عندما يعرف أنهم لقطاء، والسلطة تقهر وتقمع ولا تساعدهم حتى، ولا تتركهم يعملون بجدٍ وكرامة.

تفصح "ليلى" عن رغبتها من خلال رؤيتها للمجتمع من حولها، إنها تود (وكل من معها) لو علم كل الناس وكل العالم أنهم لا ذنب لهم فيما حدث، غيرهم هو من أخطأ، وتبرر رغبتها هذه بإظهار السلوكيات التي يعانون بسببها في كل لحظة وفي كل مكان، في الشارع؛ والمؤسسات؛ والمستشفيات؛ والمطاعم... إلخ، إنهم في معاناة ممتدة، وشقاء كثيف لا يتحمله بشر، وأبرزت رواية "دفاتر الوراق" هذا المعنى، وسلطت عليه ضوءًا كاشفًا لعل أحدًا يتحرك فينقذهم مما هم فيه.

وأدخل السارد "إبراهيم" بوصفه الراوي الرئيس في بلورة هذه الرؤية التي تعبر عن فئة اللقطاء، كطبقة مهمشة في المجتمع، عندما جعله يقضي في البيت المهجور – الذي يلم شتاتهم – مدة ليست بالقصيرة، فيصور لنا في هذه المدة مشاهداته عبر الوعي القائم والممكن، من خلال رصده لمعاناتهم **"ما عاد أي من الشبان يخرج فقد قبض على رائد أثناء سطوه على إحدى الدكاكين؛ وتوقف نور عن التسول خوفًا من أن يقبض عليه هو الآخر، حتى سلام التي كانت تبيع المناديل الورقية لم تخرج هي الأخرى ... مهملين لا**

(١) الرواية: ص ص ١٩٢ – ١٩٣.

يكترث بأمرهم أحد، كأنهم عصفور سقط على كتف سيد يرتدي بذلة فاخرة وراح يمسحها بعجالة وقرف"[1]، يصور "إبراهيم" عبر البينة السابقة ومن خلاله وعيه القائم مدى الظلم الواقع على هؤلاء الفتية، وقدم رؤيته عن عالم أهملهم وتركهم عرضة للانحراف والأمراض والجوع، والشقاء والحرمان. كانت عينا "إبراهيم" ترصد وتصور هذه المشاهد التي تكررت كثيرًا في الرواية، مما دفعه إلى التعاطف معهم وإنفاق كل مدخراته عليهم، وأنفق عليهم كذلك متحصلات بيع أثاث بيته الذي طُرد منه، بل إن وجوده معهم ورؤيته لمعاناتهم كان هو السبب الرئيس المعجل بتغلب الصوت الباطني عليه، ودفعه ليقتل الفاسدين ويسطو على البنوك.

والحقيقة أنه بجانب رؤية البطل الراوي الرئيس "إبراهيم" للعالم؛ وظهورها كرؤية أساسية مبتغاة من النص، فإن الرؤية الأوضح بعدها هي رؤية هذه الشريحة المهمشة، حيث وردت هذه الرؤى خلال بنى دلالية كثيرة في الرواية؛ حتى في صفحاتها الأخيرة نرى السارد يكرر هذا التصور من بالتأكيد على المعنى الوارد في الفقرات السابقة **"ليس ذنبي أني ابنة لحظة نشوة محرمة. (ابنة حرام) عبارة يقولونها يوميًا ولم أستطع أن أتصالح معها، أليسوا آباء! أليسوا أمهات! كيف يصبح الإنسان وحشًا وحملاً وديعًا في الآن ذاته"**[2]، لتتواصل محاولة السارد إيصال رسالة إلى مجتمع انهارت فيه حقوق هؤلاء، بأن النهاية ليست مبشرة في ظل قهر هؤلاء الشباب، وأن مصير العالم كله مرهون بتحقيق العدالة لهذه الفئة المهمشة وغيرها. وفي النهاية تظل رؤية

(١) الرواية: ص٢٠٣.

(٢) الرواية: ص٣٤٧.

العالم الناتجة عن وجهة نظر هذه الطبقة رؤية منتقصة غير كاملة كما قررت "ليلى" في صفحة (١٨٣) **"هذا العالم جديد عليّ، لا أعرفه لا أناسه ولا أماكنه، سمعت إحدى المشرفات مرة تصفني بقطة مغمضة العينين، ولم أفهم إلا الآن ما معنى أن تكون لك عينان مبصرتان ولا ترى بهما"**، وتستمر "ليلى" في تكوينٍ مستمر لرؤيتها عن العالم الجديد، بعد أن فُجعت بالقدر الذي كونتها عنه حتى الآن.

٣ـ قضية المرأة:

قدمت رواية "دفاتر الوراق" صورة شائكة لرؤية العالم في قضية المرأة؛ وما يخصها من ممارسات وسلوكيات في بعض المجتمعات العربية، وأظهرت هذه الرؤية من خلال منظور شخصيات متعددة، مثل الشخصية الرئيسة "إبراهيم" وأيضًا شخصية "ناردا" زوجة أبيه التي أحبها دون أن يعرف أنها زوجة أبيه، وهناك منظور بنات الملجأ "ليلى" ورفيقاتها، وحاولت الرواية إبراز جوانب عدة لهذه القضية؛ سعيًا منها في تغيير سلوك المجتمع ونظرته للمرأة؛ وبخاصة في المجتمعات المغلقة، أو ذات الطبيعة العشائرية أو القروية.

إن ما تحاول الرواية إثباته منذ البداية عبر هذه الأصوات المتعددة هو بيان كم القهر الذي يقع على المرأة لتقييد حريتها، ومحاولة سلبها إنسانيتها وحقها في ممارسة الوجود على النحو اللائق بها وترتضيه لذاتها، ولكننا نرى أن نظرة المجتمع في الرواية قد رسخت مفهوم المرأة ذات "الطاقة الشريرة التي يجب أن يُحكم تقييدها وحجبها لكي لا تنفلت فتدمر الثوابت، أو على الأقل تزعج سلام الرجل المتفرغ لبناء مجده الخاص، وثروته الخاصة؛ نسله

الخاص؛ قانونه الخاص؛ عرفه الخاص، عالمه الخاص الذي لا تنتمي إليه المرأة إلا بالقدر الذي يقرره لها الرجل"[١]. لقد أبرزت شخصية "ناردا" رؤيتها للعالم في قضية المرأة من خلال ضمير المتكلم (أنا)؛ لتبين ما تتعرض له الأنثى في بعض المجتمعات الشرقية، وأن المرأة "تمثل أفصح الأمثلة على وضعية القهر بكل أوجهها وديناميتها"[٢]، ولتمثل "ناردا" وبنات الملجأ وغيرهن من الشخصيات النسوية في الرواية رمزًا آخر لضحايا العادات والتقاليد في المجتمع، ونموذجًا صارخًا لانحدار العالم في معاملته العنيفة والمستبدة للمرأة.

وعن المنظور الأول الذي تمثله "ناردا" فقد أثبتت رؤيتها للعالم في دفتر مذكراتها الذي وقع في يدّ "إبراهيم"، ومن ثم نرى شذرات من وعيها القائم والممكن تنثال في بنى دلالية متعاقبة على فترات متقطعة، لتبين من خلالها رؤيتها للعالم الذي تعيشه، وتؤكد أنها امرأة تعرضت لأشكال مختلفة من القهر والعنف المختلفة وعايشتها.

إذ تبدأ الحكي بسرد فترة طفولتها وأنها كانت تعيش في كنف أب وأم وأخ حاصروها بكل ما هو عيب وخطأ، أو صواب ومقبول، أو ما هو حلال وحرام، كسياج يُفرض عليها منذ الطفولة **"فكرتي عن الحياة مثل أي فكرة لبنت من أبناء جيلنا، مبنية على معرفة ما هو صائب وما هو خاطئ، ما هو**

---

(١) نازك الأعرجي: صوت الأنثى دراسات في الكتابة النسوية العربية، ط١، دار الأهالي، دمشق ١٩٩٧، ص١٠.

(٢) مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي سيكولوجية الإنسان المقهور، ط٩، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء -المغرب ٢٠٠٥، ص٢٥٩.

حلال وما هو حرام، أصحو عند الفجر أصلي مع والدتي، بينما شقيقي يصلي بمعية والدي"[1]. إن حالة "ناردا" ليست حالة فردية، إنها سلوك وثقافة مستقرة في وجدان المجتمع؛ فكل بنات جيلها ومجتمعها محاطون بنفس السياج. وما فعلته "ناردا" من خلال البنية السابقة هو نقل مشاهداتها عبر الوعي القائم لما يحدث في المجتمع فقط، فكل شيء خاص بالمرأة خاضع لميزان الحلال والحرام، والعيب والصواب، ولا مجال للتفلت من رقابة المجتمع عليهن.

إن الناتج عن ما تصفه "ناردا" سيكون أمهات ونساء مقهورات، يمثلن جانب الطاعة العمياء كنموذج أسمى عند الرجل والمجتمع، يجب أن تكون المرأة كذلك، كما تصف "ناردا" أمها – وكما وصف "إبراهيم أمه من قبل، فأم "ناردا" كما تقرر هي **"سيدة لا تقرأ ولا تكتب، تمضي جزءًا من وقتها بين انشغالات البيت ومجالستنا نحن وأبي، وجزءًا من وقتها مع الجارات، لا تعرف عن الحياة سوى ما يعرفه أبي؛ وما تعرفه من الجارات، امرأة مطيعة وهادئة، حتى أن ما من أحد سمع لها صوتًا غاضبًا ذات يوم"**[2]، ما زال الوعي القائم لدى "ناردا" مستمر في تقديم رؤيتها للعالم في إطار هذه القضية، إنها ترى المجتمع لا يريد للمرأة إلا أن تكون كائنًا مطيعًا، هادئًا ولينًا، بعيدة كل البعد عن مصادر المعرفة ونور الثقافة، لتظل أمية لا تعرف القراءة ولا الكتابة، ولا تتأتى لها أي معرفة عن العالم الخارجي إلا بالقدر الذي يريده الرجل المسيطر، تشاهد "ناردا" هذا الوضع القائم لتنغرس فيها

(١) الرواية: ص٩٦.

(٢) الرواية: ص٩٦.

بذور التمرد في هذه المرحلة المبكرة من عمرها، ولكن لا بد لهما من إكمال الصورة الذهنية عن وضع المرأة في مجتمعها.

فقد انقلب الحال الهادئ المستقر، الوضع الذي كل من فيه راضٍ بالدور الذي حدده له المجتمع بثقافته وقيمه، وهيمنت السلوكيات الاجتماعية على الجميع، وكان بداية تغير الحال يوم أن عرف الحي (المجتمع) بعلاقة فتاة – زميلة "ناردا" – بشاب من شباب الجامعة، وأنهما معجبان ببعضهما، وكان أن **"قام مجهول بتصوير وتشيير فيديو للفتاة على الانترنت وهي تبادل الشاب القُبل بين أشجار الجامعة، فتداوله الكثيرون إلى أن رأه شقيق الفتاة فقام بقتلها؛ إذ طعنها بسكين وقطع أوصالها وألقاها في الشارع. وصرخ مناديًا بأنه غسل عاره، كانت جريمة بشعة أثارت الرعب بين الفتيات والخوف من العار بين الرجال، وبقيت مثل كرة من الثلج تكبر والناس يتداولونها"**[1]. إن ما حدث للفتاة تراه "ناردا" هولاً وفاجعة، حيث وجدت المجتمع يستبيح سفك الدم بزعم غسل العار، ويزهق الروح لا لإثم كبير أُرتكب. إن الأخطاء يمكن لها أن تعالج؛ والكسور يمكن أن تجبر؛ والجروح يمكن لها أن تداوى، لكن المجتمع بهذه الثقافة وهذه التركيبة العقلية لا حل لديه سوى الدم؛ وبهذه الصورة البشعة التي تشمئز منها الفطرة السليمة السوية.

إن وعي "ناردا" القائم قد وصل إلى طريق اللاعودة حين رأت هذ الممارسات في حق فتيات في مثل عمرها، لقد تملكها الخوف والرعب وغادرتها السكينة والراحة. لقد بدأت ترى الرجال وحوشًا في صورة بشرية، وتكونت لديها رؤية عن العالم بأنه منزوع الرحمة وعديم الشفقة، إنها رؤية

(١) الرواية: ص٩٧.

توضح علاقة المرأة بالعالم في ظل هذا القهر المجتمعي الواقع عليها، إذ بينت حال "المرأة بكل شفافية وصراحة، حيث صورت المرأة بقوتها وضعفها، بحزنها وفرحها، بإيجابياتها وسلبياتها، وكذلك معاناتها في المجتمع الشرقي"(١)، وفي الصفحات التالية لموقف قتل الفتاة؛ تقوم "ناردا" بنقل مشاهد لسلسلة لا تنتهي من العنف الممارس عليها وعلى كل بنات جيلها، ويقوم "إبراهيم" بنقل لمحة منه كذلك، ناهيك عن ما يحدث تجاه بنات الملجأ من الأساس.

فقد تغير والد "ناردا" بشكل كامل تمامًا بعد حادثة القتل، وبدأت سلوكياته تتغير هو وابنه تجاه "ناردا" وأمها؛ تحكي وتقول: **"كان والدي أيامها منزعجًا مما جرى وما يقال في الحي، أجده في أحيان كثيرة يوجه نحوي نظرة متوجسة عندما يراني أتصفح هاتفي، ثم يشيح بوجهه عني، تغيرت طلعته فافتقدت الابتسامة البشوشة، ولمساته الحانية. صار مزاجه متوترًا، ويصمت على احتجاج رمضان على ملابسي في البيت التي كان يراها ضيقة، تبرز مفاتن جسدي"**(٢)، إن هذه البنية الدالة السابقة تشير إلى سجن يقوم الأب والابن بوضع "ناردا" فيه مع أمها، حيث يُشك فيها لمجرد تصفحها الهاتف، ويُعترض على طريقة لبسها، وكذلك على جمعها الملابس التي نُشرت في الشمس على سطح البيت. إنهما يعدان عليها أنفاسها ويحصيان أفعالها: ماذا قالت؟ وماذا فعلت؟ وإلام تنظر؟ ومن تُكلم؟ وماذا تلبس؟

---

(١) وائل علي فالح الصمادي: صورة المرأة في روايات سحر خليفة، المطبعة العربية، عمان ٢٠١٠، ص٢٤٩.

(٢) الرواية: ص٩٨.

ووصل القهر نهايته أمام "ناردا" بأن اشتد الخناق من قبل الوالد؛ يوم دخل عليها هي وأمها بعد أن صلى العشاء في المسجد، فوجدهما أمام التلفاز ولم يصليا بعد، استشاط الوالد غضبًا **"وأزال أسلاك التلفاز وحمله ثم ألقاه عبر نافذة البيت وشتم صانعه، بينما تقاذف الزقاق صدى صوت ارتطامه بالأرض، التقط الراديو الذي اعتادت أمي أن تستمع عبره لأغنيات فيروز وهشمه بمطرقة، إلى أن تحول إلى فتات صغيرة"**(١)، صُدم وعي "ناردا" وطالبت أباها بتفسير لما يفعله، لماذا! ليجيب الأب في ذات الصفحة (٩٨): **بأن هذه الأشياء قد أفسدت وعي الناس وأضلتهم. ويذهب مجددًا إلى كتبها ويمزقها إلى قطع صغيرة؛ ويعلن أنه منذ اليوم: "لا أغنيات ولا موسيقى ولا مسلسلات ولا كتب، منذ اليوم عليكن أن تبدلن نمط ملابسكن وتلزمن البيت، لا ذهاب إلى المدرسة".**

اكتملت أسوار السجن حول "ماردا" ومعها أجيال كاملة في مجتمعها، وحيل بينهن وبين أبسط حقوقهن، وهذه "الانتهاكات توقع ضررًا بالغًا عليهن وتسبب لهن المعاناة؛ ليس هذا فحسب بل إنها تمزق نسيج مجتمعات بأكملها"(٢)، وقد أشار "إبراهيم" لمثل هذه الانتهاكات في روايته هو الآخر، عندما كان يحكي ليلة زفاف أمه "مريم" لأبيه، ويوضح لنا من خلال بنية دالة نظرة المجتمع للفرق بين الرجل والمرأة، واستكانة المرأة لهذه الرؤية تمامًا

---

(١) الرواية: ص٩٨.

(٢) علياء شكري: قضايا المرأة المصرية بين التراث والواقع – دراسة للثبات والتغير الاجتماعي والثقافي، ط١، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، القاهرة ٢٠٠٣، ص ٢٤٧.

"ليلة زواجه جلست مريم على حافة السرير خائفة تنظر إلى الأسفل، تفرك يديها ببعضهما البعض، وأنفاسها تتوالى مضطربة، وقف أمامها جادالله يفكر ... أدرك انك تنتظرين مني أن أضربك كما يفعل الرجال في هذه القرية، وأعرف أنك خائفة مما سمعتيه من وحشية البعض في فض بكارة المرأة، لكني لست مثلهم؛ هل تتوقعين مني أن أقبل بأن يؤذيني أحد ما؟ بالطبع لا – لهذا عليك أن تفهمي ألا فرق بيني وبينك. نظرت إليه مريم مستنكرة؛ وقالت بصوت خفيض وخجول: لا نحن لسنا واحدًا، أنا امرأة وأنت رجل"(١).

استقر في وجدان المجتمع بأكمله أن الذكر غير الأنثى، إنها في درجة أقل منه، حتى النساء قد رضين بذلك ورضخن لهذا المعتقد، وكل العادات والتقاليد ترسخ لهذا وتجذره، وتضفي عليه شرعية حتى في أسعد ليالي العمر أساغ المجتمع للرجل ممارسة عنف وإيذاء ضد المرأة. والعجيب هو رضا الأنثى واستسلامها الخانع لكل هذه الممارسات الخاطئة، بل واستنكارها القوي حين يقف رجل مثقف مستهجنًا هذا الوضع، فتقف المرأة بغرابة شديدة منتصرة للعادات التي تقهرها وتقمعها.

وتأتي في ذات السياق رؤية بنات الملجأ (ليلى ورفيقاتها) لهذا العالم في هذه القضية، حيث يقدمن بنى دلالية كثيرة تظهر نظرة المجتمع الناقصة لهن بوصفهن نساء، فتعددت الفقرات التي نقلن من خلالها تعرضهن للضرب أو الاغتصاب والتحرش اللفظي والفعلي، تحرش لا ينتهي في كل خطوة لهن وما يستتبعه من عنف جسدي وتعب نفسي هائل **"قال لي بصوت خشن: (أريد علبة مناديل)، انحنيت إلى الأسفل فاكتشفت أنه يحدق بنهدي وقد**

(١) الرواية: ص٣٢٩.

رآهما عبر فتحة القميص، حين أعطيته العلبة مدّ يده فأمسك صدري: (كنت أعرف أنك فتاة)، قفزت مذعورة وألقيت الكيس وقد وجدته يقترب مني وينظر إلى رجل على مقربة منه: لا تمثلي الشرف علي"[1].

تكررت هذه البنى من خلال تفسيرات "ليلى" لمشاهدتها للعالم الخارجي وبدء تكوينها لرؤيتها الخاصة للعالم خارج الملجأ، وحتى قبل أن تخرج من الملجأ حين تعرضت للاغتصاب على يدّ مشرفة الدار "ريناد"، وهناك أيضًا الرؤية التي عرضتها شخصيتا "ناردا" و"ليلى"؛ وفيها صورتا العنف والبؤس الذي تعيش فيه نساء كثيرات ممن امتهن الدعارة وبيع الجسد، مثل ما نجده في صفحة (١٤٩) فهن **"نساء حزينات يتمثل معظمهن الشبق لإرضاء غرور الزبائن، نساء يائسات يحلمن ببيت صغير دافئ بمعية رجل له القدرة على ترميم ما ألم بهن من جروح"**، لقد تضافرت كل هذه الرؤى من "ناردا" و"ليلى" و"إبراهيم" لتكتمل صورة المجتمع الذي يرونه، ومشاهداتهم لما يحدث من العالم تجاه المرأة، ليفتح السارد بهذه الرؤى المتعددة هذه القضية المؤلمة، لأنها قضية "قديمة قدم العالم، وليست قضية محلية؛ بل ذات صبغة عالمية، إذ إنها تنتشر في المجتمعات كافة؛ المتحضرة والنامية، لكنها تبقى من الأمور الأكثر خفاءً، فهي تدخل في إطار المشاكل العامة التي تلقي عليها العادات والتقاليد الغطاء، وتمنع الكشف عنها باعتبارها من الأسرار العائلية"[2].

---

(١) الرواية: ص ص ١٣٨ - ١٣٩.

(٢) علياء شكري: قضايا المرأة المصرية بين التراث والواقع – دراسة للثبات والتغير الاجتماعي والثقافي، مرجع سابق، ص٢٤٧.

وكانت نتيجة هذه الرؤى والممارسات التي تراها "ناردا"؛ أن انتابها شعور طاغٍ بالفرح يوم أن اختطف الموت جميع أفراد عائلتها في حادث سيارة، إنها ابتهجت لزوال السجن المفروض عليها، وفكاكها من القيد الذي كبلها ومنعها حريتها وانتقص من إنسانيتها، ولكنها بعد ذلك دهشت من موقف المحيطين بها من أفراد عائلتها ومن مجتمعها، إنهم جميعًا يرونها لا شيء **"لأجدني وحيدة في بيت أعطاني الحزن أكثر مما أعطاني الفرح، حقيقة أعترف لنفسي بها حينما أتذكر كيف كنت مجرد كتلة لحم على الجميع أن يبعدها حتى عن نظرة تصوب لها عن بعد"**(١)، لكن "ناردا" لم تبال بذلك وبدأت الانطلاق والإحساس بالحياة، وكانت نقطة البداية أن انتقلت من مسكنها، ولبست ما تشعر فيه بالحرية والانطلاق، وأخذت ترقص وتغني في بيتها، تأكل وتمشي وتخرج، حتى أنها لم تعد تبالي بما يطلقه عليها الحي من ألقاب، ومن وصفه لها بأنها تمشي على حل شعرها؛ ومستهترة.

لقد تبلورت رؤية "ناردا" للعالم من حولها، وتكشف لها من خلال الوعي الممكن أن الحياة في ظل هذا المجتمع القاسي المزدوج لا بد أن يجابه بقوة وفرض للقناعات، لا عبر الاستجداء وتذلل أو خضوع واستكانة **"كنت أحاول أن أجعل ما يزعجني في ذاكرتي أن يركن في غفوة طويلة، لأني أعي أن لا شيء يمكن أن يقتل الذاكرة إلا الموت، كنت أريد أن أنسى أنني عار، غيرت إسمي وطريقتي في ارتداء الملابس، وعلاقاتي مع الناس، وزوايا رؤيتي للكون، ورفعت منسوب جسارتي في الاقتراب مما أحب والابتعاد**

(١) الرواية: ص١٢٢.

عما أكره؛ واخترت ما أريد"[1]، كانت هذه النهاية الأفضل لشخصية "ناردا" أن تنتصر على تلك الممارسات القاتلة لروحها ونفسها، وتقوض تلك العادات المنتقصة لحق المرأة، لتمثل "ناردا" أيقونة التحرر والانطلاق المتوافق مع داخلها، ضد عالم رأته متحيزًا وظالمًا لكل ما هو أنثوي.

ولتقف رواية "دفاتر الوراق" في صف هذا الكائن الرقيق المهمش عبر تسليط الضوء المتوهج على قضية العنف والتهميش ضدها، وسلبية العادات والتقاليد في المجتمع تجاه ما يخص المرأة، وتطلق صيحة تحذير ليتوقف هذا العنف الجسدي والجنسي والقانوني الذي اختصت به المرأة كنصف المجتمع، ويعلن السارد انتصار "ناردا" كرمز لبنات جنسها كله؛ كما في صفحة (١٢٤) **"أشرعت باب بيتي وخرجت، كنت في الحقيقة قد أشرعت شبابيك روحي للشمس لأطرد بردًا داخليًا طالما منعني من الإحساس بجدوى ما حولي".**

٤ـ قضية السجن السياسي:

دخلت رواية "دفاتر الوراق" عش الدبابير حين أوردت شخصية "جادالله" والد "إبراهيم"، حيث أجاد السارد رسم صورة الإنسان المثقف الذي استكمل تعليمه في موسكو، وتشرب مفاهيم العدالة الاجتماعية؛ وبدأ يتوق إلى تغيير المجتمع الذي ترعرع فيه. واستطاع المبدع أن يبين قوة تكوينه الثقافي والسياسي، من خلال إظهار نهمه للقراءة وحبه للمعرفة، وبيّن كيف أنه تعرض للاعتقال مرتين؛ مرة في موسكو وأخرى في بلده، مما يجعل هذه القضية ذات حضور قوي ومميز في الرواية. وتتبلور من خلال عرضها رؤية

(١) الرواية: ص١٢٣.

للعالم من وجهة نظر معتقل سياسي هو "جادالله"، وتتناول الرواية من خلال هذه القضية مفهوم الحرية في مطلقها، الحرية التي تقع "وراء التقدم والرخاء والأمن لبني البشر، ولولاها لظل الإنسان حتى اليوم في الكهوف، وظل عقله حبيسًا لم يتحرك ولم يتحرر، ولم ينشئ هذه الحضارة الباهرة الضوء، العالم الذري"(١).

تقيم الرواية تساؤلاً كبيرًا في طرحها لهذه القضية، ومحاولة بلورتها لرؤية الشخصيات من خلال هذا التساؤل، وكان هذا السؤال هو: لماذا يكون القمع وسلب الحرية هو الحل الأول عند السلطة لقمع الفكر ومواجهة الرأي؟ لماذا تلجأ إلى كسر الإرادة وتفتيت الروح، ويكون هو خيارها المفضل؟ إن الحرية الفردية تدل على حرية الوطن، فهذه تقود إلى تلك "فحرية الوطن من حرية الإنسان الذي يعيش بين ربوعه، واستقلال هذا الوطن لا يصان إلا عندما يصان استقلال الإنسان الذي يدافع عنه"(٢).

وقد جسدت شخصية "جادالله" نموذجًا للمثقف؛ المهمش الذي انهارت أحلامه على صخرة الواقع المقيت، حيث امتلأ كيانه بحب وطنه وسعى في تغييره للأفضل؛ من خلال تعليم الأولاد الصغار، وكذلك من خلال تثقيف الناس وزيادة وعيهم. ولكن نشاطه هذا لم يرض السلطات الحاكمة فاعتقلته، ويحكي "جادالله" ما حدث معه من خلال مذكرات كتبها ووصلت إلى "ناردا"

(١) محمد زكي عبد القادر: الحرية والكرامة الإنسانية، مؤسسة الخانجي، القاهرة ١٩٥٩، ص٧.

(٢) في قضية الحرية: مجموعة مؤلفين، ط١، منشورات مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت ١٩٨٠، ص١٥.

التي أحبته وتزوجته، يحكي فيها بشكل فيه كثير من الأسى رؤيته للمجتمع والعالم بعد تجرته هذه، ويؤصل من خلال مذكراته لرؤيته الاستشرافية لمستقبل هذا العالم. ويبدأ "جادالله" برواية قصة اعتقاله؛ لقد حاول **"أن يهرب حينما رأى رجال الدورية يقتربون منه، لكن ضربة على رأسه وجهها له أحدهم جعلته يسقط مغمى عليه، في طريقهم إلى المخفر أوسعوه ضربًا ذكره بالضرب الذي تلقاه في موسكو، في تلك الليلة تلقى كثيرًا من الشتم والضرب إلى أن اعتقدوا أنه شارف على الموت، فألقوه في زنزانة يئن ويهلوس"**[1]، لقد استغرقت هذه البنية الدلالية حوالي أربع صفحات، ليؤصل "جادالله" رؤيته من خلال وعيه القائم بوصف ما حدث، ويشرح باستفاضة ليبرر لنا لماذا ستكون رؤيته صحيحة في النهاية. لقد واجهوا كلماته بالضرب، ورأيه بالسجن، ووعيه بالقمع، لم يناقشه أحد ولم يواجهوا فكره بفكر آخر، إنه في عالم يفرض رأيه بالقوة وتكميم الأفواه.

كانت لحظة اعتقال "جادالله" نقطة تحول في رؤيته للعالم من حوله، إذ فقد الثقة في كل شيء حوله، ولم يعد يرى أن شيئًا يستحق منه بذلاً أو جهدًا، وانكسرت روحه وخارت عزيمته، خاف من كل شيء ومن كل إنسان حتى من ظله، وبدأ ينقل خوفه وشكه هذا إلى ابنه "إبراهيم"، كما يحكي لنا ابنه **"تلفت حوله وقال بصوت خفيض: من الآن فصاعدًا عليكم ألا تثقوا بأي شخص ... لم نكن نفهم ما يقول وما يحذر منه، كل ما سمعناه أنه سجن لأمر سياسي؛ حذرنا من كل الناس ... أشفقت عليه ورأيت أن أمرًا كبيرًا حدث له غير السجن، الذي لم أكن أفهم ماذا يمكن أن يفعل بالإنسان، كان**

(١) الرواية: ص٣٣١ وما بعدها.

أبي مثل ذلك الإبريق الزجاجي الذي ورثته أمي عن جدتي، وقد وجدته ذات يوم مشروخًا ولا تعرف من تسبب في ذلك"(١). وتضافرت مشاهد كثيرة عبر وعي "إبراهيم" وأبيه "جادالله" لتنقل لنا رؤية للعالم بدأت تتشكل في ذهن شخصية "جادالله"، إنه عالم قائم على الشك والريب، فكل من فيه يعد مخبرًا وناقلاً لأخبار الناس وأحاديثهم وميولهم عند السلطة، وعليهم ألا يثقوا بأي أحد لا البقال ولا الجيران ولا زملاء الدراسة، حتى **الجدران "لا علاقات بالجيران، لا أحاديث في المدرسة تدل أحدًا على شخصيته وطريقة تفكيره، حتى صوت التلفاز يجب أن يكون منخفضًا خاصة في وقت نشرة الأخبار"**(٢).

نجح العالم من أن يجعل "جادالله" إنسانًا مشوهًا، بقايا إنسان محطم يرغب في الانعزال عن المجتمع؛ بعدما كان ممتلئًا بالحيوية والنشاط، والرغبة المتوقدة في خدمة بلاده ووطنه، وأسهبت الرواية في تأكيد هذا المعنى، مرة تلو الأخرى، حيث تشير من خلال هذه البنى الدلالية المتعاقبة إلى طبيعة بعض المجتمعات التي تعتمد القهر أسلوبًا للحكم، ونظامًا ممنهجًا لسياسة الشعوب، فتسود في مجتمعات كهذه مشاعر الشك والريب بين بني الوطن الواحد، ويتفكك نسيج المجتمع بعد تلاحمه وتماسكه **"بُني إبراهيم تعلم أن تكون كتومًا، وما أدراك أن البقال مثلاً لا ينقل المعلومات للجهات الأمنية؟ البقالون يثرثرون كثيرًا، ويستقون المعلومات من الشباب الذين هم بعمرك، ألم تلاحظ كيف يتصنت عمال النظافة على البيوت؟ يلتقطون أي**

(١) الرواية: ص ص ٢٣ - ٢٤.

(٢) الرواية: ص٥٠.

كلمة ويدونونها في تقاريرهم اليومية، حتى العجائز هناك خوف منهن ... لا تثق بأحد، صديقك؛ زميلك؛ أخيك؛ حبيبتك؛ حتى العاهرات في الشوارع لا تأمن جانبهن"[1].

كوّن "جادالله" رؤية محددة للعالم من خلال وعيه القائم وخبراته وتجاربه السابقة المؤلمة، وروحه المهيضة، فخرجت رؤيته بوعيه الآني محملة بأثقال تلك التجارب والخبرات السابقة، إن المجتمع – في نظره – عبارة عن معتقل كبير، لا مجال للحرية فيه أبدًا. انعدمت الثقة بين أفراد المجتمع كله، ففضل "جادالله" حريته الداخلية، تلك الحرية التي اختار فيها الانزواء والانفصال، والانكفاء على الذات مبتعدًا عن الآخرين، مقيمًا "إشكالية سردية تختلف باختلاف وجهة نظر الروائي ... خاصة إذا ارتبطت بالآخر الذي هو العدو بحد ذاته، لتصبح الأنا في موقع صدامي صراعي على الدوام معه"[2]، ويظل اختيار "جادالله" بالانكفاء على ذاته مفهومًا في ظل رؤيته للعالم، إذ يراه سالبًا لحقه في الحرية والتفكير، وحقه في الكتابة والتعبير، ويكاد يحاسبه على حقه في العيش والتنفس، ومن ثم بدأ يسري لديه شعور بعدم الانتماء ، وينسلخ رويدًا رويدًا من المجتمع الذي يأخذ منه كل شيء ولا يمنحه شيء بالمقابل.

ولأن المبدع رمز بشخصية "جادالله" للمثقف الواعي؛ الذي تغيرت حياته بعد تجربة قمعية؛ فقد جعل منه أيقونة للوعي الممكن وبلور من خلاله رؤية

---

(١) الرواية: ص٧٠.

(٢) محمد صابر عبيد: جماليات التشكيل الروائي، ط١، عالم الكتب الحديث، الأردن٢٠١٢، ص٦٣.

استشرافية للعالم. وضع فيها توقعاته المؤكدة لمصير عالم فيه هذه الأوضاع، وساقت الرواية الكثير من البنى الدلالية حول هذه الرؤية الاستشرافية من منظور "جادالله"، فهو يرى أن العالم **"كله تبدل. – وهل سنصبح بخير؟ صوب لي نظرة من فوق كتفيه، وكأنه يستغرب سؤالي: يبدو أننا نسير إلى الهاوية، كثرت الوحوش وكثرت ضحاياهم"**[1]، نظر "جادالله" إلى الأمام ورأى العالم القاسي ينهار لأنه يستحق ذلك، انتشر الظلم وزاد عدد الضحايا؛ وهو واحد منهم، ويرى العالم يتبدل ولكن إلى الأسوأ. وبعد أن كانت رؤيته مشوشة؛ قائمة على الشك والريب في كل من حوله؛ استقرت هذه الرؤية وصارت ذات بناء استشرافي قوي، ووصلت إلى نتيجة واحدة حتمية: سينهار هذا العالم ويهلك، لأن أساس العادلة غير متحقق فيه، ويعد الظلم والقهر هو نقطة البداية والنهاية لكل النظم والحكومات.

ويؤكد "جادالله" هذه الرؤية في نهاية الرواية ولكن مع بث قليل من الأمل، أمل في زمن جديد يحمل النور للناس، والراحة للمتعبين، زمن ليس فيه قهر ولا استبداد، زمن تسود فيه قيم الحرية والديموقراطية والعدالة. ولكن لكي يحدث ذلك أولاً لا بد من المرور بمرحلة يسقط فيها كل هذا القبح وكل هذا الزيف، وتنهار هذه الدعاوي الباطلة **"العالم يسير على نحو مجنون ومرعب، لكن ستأتي لحظة ينهار فيها كل شيء، ويبدو بعدها مثل وردة تنمو من بين الركام، وردة تطرح بذارًا ستحول المكان الذي حولها إلى حقل ...**

(١) الرواية: ص٢٦١.

هل ترين هذا التعب الذ يلوح في وجه كل الناس؟ هززت رأسي: وأحس أيضًا بوجعي. – هذا التعب سيفضي إلى زمن جديد"[1].

ليست رؤية "جادالله" كلها سوادًا، بل فيها بصيص نور يستشرفه عبر وعيه الممكن، إنه يرى جيلاً قادمًا يحمل مشعل التقدم والرقي والوعي، هذا الجيل سيبني الوطن على أساس من التحرر والمساواة، ولكي نصل إلى هذه المرحلة لا بد من سقوط القديم، وأن يعرف الناس الزيف والقبح، وبهذه الرؤية تختتم رواية "دفاتر الوراق" صفحاتها، لتؤسس رؤية ممتدة عبر أصوات المهمشين باختلاف طبقاتهم وأعمالهم وجنسهم، رؤية واقعية ومستشرفة تدق نواقيس الخطر أمام القادة وأصحاب القرار، ليتداركوا كل شيء من الانهيار والسقوط، ويهتموا بهذه الفئات المهمشة ويحاولوا علاج مشكلاتهم بشكل جذري، وإلا ستصبح هذه القضايا وهؤلاء المهمشون قنابل موقوتة؛ وحجر عثرة في طريق تقدم الأوطان والأمم.

(١) الرواية: ص٣٠١.

خاتمة

كشفت رواية "دفاتر الوراق" عن رؤى محددة للعالم أنتجتها شخصيات تعيش على هامش المجتمع، تضمنت خلاصة وعيها القائم وكذلك استشرافها المستقبلي. مما ساعد في بناء رؤية كلية للعالم ابتغى السارد ترسيخها عبر صوت هؤلاء المهمشين، وتضافرت كل أحداث الرواية وبنياتها الدلالية، وطريقة نسجها في بيان واضحٍ لإظهار هذه الرؤية الكلية وما يرفدها من رؤى جزئية.

كما قامت الرواية بإبراز رؤى العالم من خلال قضايا مجتمعية معينة يُطل الخلل منها بشكلٍ فجّ، فتناولت قضايا مسكوت عنها في المجتمعات العربية، وطرحت مفاهيم عميقة مثل: الطبقية، الفقر، غياب العدالة... إلخ، وأكدت الرواية عمق العلاقة بين رؤى العالم المُمثِّلة لشخصيات المهمشين، والواقع المُعاش بالفعل، إذ كان للعادات والتقاليد ونمط الثقافة السائد أثر قوي في تكون هذه الرؤى. وأصبحت هذه الرؤى نتاج التفاعل الحي لهذه الشخصية أو تلك مع الواقع من خلال الوعي القائم، ولم تكن هذه الرؤى مجرد انعكاس آلي بحت لما في المجتمع.

ويمكن أن نشير إلى عدة نقاط مستخلصة بعد القراءة السابقة لرواية "دفاتر الوراق":

ـــ تعد البنيوية التكوينية أداة منهجية قوية لاستخلاص رؤى العالم من النص الأدبي، إذ تقوم على أساس وجود علاقات قوية بين الطبقات الاجتماعية والإبداع الأدبي من جانب. ومن جانب آخر تؤمن بأن النص بنية مغلقة قائمة على مبدأ المحايثة التي تستغني عن السياقات الخارجية، ولذا

فقد جمعت البنيوية التكوينية بين التركيز على البنية الداخلية التي يتكون منها النص، ولم تغفل مع ذلك الجمع بين النص وواقعه.

ـــ تفاعل الروائي "جلال برجس" من خلال "دفاتر الوراق" مع قضايا مجتمعه، فجعل من روايته صرخة حمّلها رؤية مستبصرة تجاه ما يحدث من ظلم واستبداد وغياب للقيم في وطنه.

ـــ تعددت رؤى العالم في الرواية، حيث اعتمد المبدع تقنية تعدد الأصوات بشكل جديد، فجعل من شخصية واحدة ذات صوتين سرديين مختلفين بشكل بديع، وضمن هذا التكنيك السردي تنوعًا واختلافًا في الرؤى المطروحة، وهو ما يجعلها تترسخ وتتجذر في وجدان المتلقي.

ـــ تأرجحت رؤية العالم الأساسية في الرواية بين السعي إلى تغيير العالم بالثقافة والعالم، واتخاذ جانب نشر الوعي والتحضر والرقي، وبين طريق العنف والثورة والتغيير بالقوة. وجعل السارد ظهور الجانب الآخر طبيعيًا، ناتجًا عن عدم استجابة المجتمع لصوت العقل والحكمة. واتفقت كل رؤى العالم في الرواية – مع ذلك – على أن كارثة ستنزل بالمجتمع، وأن مصيبة كبرى ستحيق بالعالم جراء ما يحدث فيه.

ـــ أزاحت الرواية الستار عن عدة قضايا مجتمعية خطيرة، واستطاعت بحرفية تامة أن تُشكل وعي الشخصيات الثانوية التي كانت محورًا للقضايا المجتمعية في النص، مما يجعل من الرؤية المُقدمة ذات عمق ودلالة، ومعتمدة على الوعي القائم والممكن، وكذلك مرتبطة بالواقع بالفعل.

ـــ امتازت كل القضايا الاجتماعية التي تناولتها الرواية بأنها قضايا شائكة في مجتمعاتنا، وبينت الرواية كم أن المجتمع يرغب بالسكوت عنها، ولكن

"جلال برجس" فضّل المواجهة من خلال تكوين رؤى جزئية للعالم من خلال هذه القضايا.

لقد شفت رواية "دفاتر الوراق" عن بعض هموم الإنسان ومعاناته في المجتمعات، وعرّت واقع الأوطان وتخبط الإنسان المثقف وحيرته في واقعه. ورسمت – كذلك – أوجاع المهمشين؛ في عالم حوّل الإنسان إلى كائن مصاب بفصام ذاتي كما يوجد هذا الفصام في المجتمع سواء بسواء. واستطاعت الرواية أن تصهر الحدود بين الحلم واليقظة، والواقع والخيال، وقدرت على تفجير الصمت المفروض حول أشياء وموضوعات وقضايا من قِبل المجتمع، وتركت رواية "دفاتر الوراق" المتلقي في حالة تلبس وحيرة يتساءل في النهاية: حتى متى يمكن أن يصمد المهمشون والمطحونون أمام حصار المجتمع القاتل؟ وإلى متى يسلبهم المجتمع أبسط حقوقهم، ويهدم أحلامهم؟

المصادر والمراجع

أ ـ المصادر:

ـ جلال برجس: دفاتر الوراق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان ٢٠٢٠.

ب ـ المراجع العربية والمعربة:

ـ اديث كريزويل: عصر البنيوية، ت (جابر عصفور)، ط١، دار سعاد الصباح، القاهرة ٢٠٠٧.

ـ أسماء محمد معيكل: الأصالة والتغريب في الرواية العربية، ط١، عالم الكتب الحديث، أربد – الأردن ٢٠١٠.

ـ بول آرون – آلان فيالا: سوسيولوجيا الأدب، ت (محمد علي مقلد)، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي ٢٠١٣.

ـ حبيب عاتب – راي بوش: التهميش والمهمشين في مصر والشرق الأوسط، دار العين للنشر، القاهرة ٢٠١٢.

ـ حميد لحمداني: النقد الروائي والأيدولوجيا، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩١.

ـ سعيد يقطين: الأدب والمؤسسة – نحو ممارسة أدبية جديدة، ط١، منشورات الزمن، الدار البيضاء ٢٠٠٠.

ـ علي نسر: الرؤية إلى العالم في الرواية العربية – قراءة في روايات جبرا إبراهيم جبرا وحيدر حيدر، دار المؤلف للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ٢٠١٩.

ـ عمر عيلان: الأيدولوجيا وبنية الخطاب الروائي (دراسة سوسيوبنائية في رواية عبدالحميد هدوقة)، منشورات قسنطينة، الجزائر ٢٠٠١.

ـ ـــــــــــــــــــــ: في مناهج تحليل الخطاب السردي، ط١، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٨.

ـ فانسون جوف: أثر الشخصية في الرواية، ت (حسن حمامة)، ط١، دار التكوين، دمشق ٢٠١٢.

ـ فيليب هامون: سيميولوجية الشخصيات الروائية، ت (سعيد بنكراد)، دار الكلام، الرباط ١٩٩٠.

ـ قصي الحسين: سوسيولوجيا الأدب – دراسة الواقعة الأدبية على ضوء علم الاجتماع، دار البحار، بيروت ٢٠١٠.

ـ كولن ولسن: اللامنتمي، ت (أنيس زكي حسن)، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٥.

ـ لوسيان جولدمان: مقدمات في سوسيولوجيا الرواية، ت (بدرالدين عرودكي)، ط١، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا ١٩٩٣.

ـ محمد الشحات: سرديات المنفى، ط١، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان ٢٠٠٦.

ـ محمد سعيد فرح: علم اجتماع الأدب: ط١، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان ٢٠٠٩.

ـ محمد نديم خشفة: تأصيل النص (المنهج البنيوي لدى لوسيان جولدمان)، ط١، مركز الإنماء الحضاري، حلب ١٩٩٧.

ـــ مدحت الجيار: النص الأدبي من منظور اجتماعي، دار الوفاء، الإسكندرية ٢٠٠١.

ـــ نادر كاظم: تمثيلات الآخر – صورة السرد في المتخيل العربي الوسيط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان ٢٠٠٤.

ـــ هندلين.ر: مفهوم النظرة إلى العالم وقيمته في نظرية الأدب، ت (عبدالسلام بنعبدالعالي)، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٨٦.

ـــ هويدا صالح: الهامش الاجتماعي في الأدب قراء سوسيولوجية ثقافية، ط١، دار رؤية، القاهرة ٢٠١٥.

ـ يسري عبدالله: جماليات الرواية العربية – أبنية السرد ورؤية العالم، دار بدائل للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٨.

جـ ـ الأبحاث المنشورة والرسائل الجامعية

ـــ أحمد زايد: مفهوم رؤية العالم في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، المجلة الاجتماعية القومية – عن المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، مج ٥٢، ٣ع، القاهرة سبتمبر ٢٠١٥.

ـــ حامد محمد المطيري: التهميش الاجتماعي في الرواية العربية المعاصرة – دراسة في الرؤيا والتشكيل، رسالة دكتوراه، كلية الدراسات العليا – جامعة الأردن، ٢٠١٦.

ـــ نزار مسند قبيلات: تعدد الأصوات في الرواية: المفهوم والتوجهات النقدية، مجلة فكر وإبداع، جـ ٥٧، القاهرة فبراير ٢٠١٠، ص ص ٢٠١ – ٢٤٣.

ج ـ المراجع الأجنبية

- Edward William Said: The world the text the critic, Cambridge Howard. University, press ١٩٨٣.

- Lucien Goldman: in collectif; le structuralisme genetque, Gallimard, Paris, ١٩٦٠.